سردية رحال

سرديّة رحّال

خواطر

الدكتور زيد العمرات

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2025/1/264)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب:	سردية رحال
تأليف:	العمرات، زيد عبد الله سالم
بيانات النشر:	معان: زيد عبد الله سالم العمرات، 2025
الوصف المادي	88 صفحة
رقم التصنيف:	819.9
الواصفات:	/الخواطر الأدبية//الأدب العرب//العصر الحديث/
الطبعة:	الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى 2025

دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن-عمان- تلفاكس **00962 6 4778770**

ص.ب **520651** عمان **11152** الأردن

E-mail: dar_yafa@yahoo.com

تصميم الغلاف: أسامة خالد العمرات

بَين دَفتيّ السَّرديَّة..

أضعُ بين أيديكم نُصوصًا متواضعةً، أنسجُها من وحيِ الواقعِ وخيوطِ الخيالِ، تُحاكي ما يشعرُ به المرءُ ولا يستطيعُ البَوْحَ به، أخُطّها بريشةِ طفلٍ يشقُّ طريقَهُ نحوَ البُلوغِ، تارةً ترتجفُ ريشتُهُ، وأخرىٰ يثبّتُها بإحكامٍ، لا يعلمُ إنْ كانَ ما تُمليهِ عليهِ تجاربُهُ صحيحًا، ولكنّهُ لا يكنُّ عن الكتابةِ!.. يرىٰ العالمَ بعيونِ الأطفالِ حينًا، وبأفئدةِ الشّيوخِ حينًا آخرَ، يعيشُ في غربةِ روحٍ تبحثُ عن وطنِها، يرتحلُ عنْ أماكنَ يُحبُّها لأُخرىٰ لا يُحبُّها، ليخلقَ الفرصةَ وبديلتَها، يرتاحُ قليلًا ويَكدُّ كثيرًا، يَستسقي الحبَّ في مواطنَ غيرِ مواطنِهِ، ويقبضُ علىٰ قلبِهِ كما يقبضُ المرءُ علىٰ جَمرةٍ..

إهْداء

إلى معلّمتي الأولى، حفيدة اللّغة وترجمان النّحو، إلى مَن خطّت حروف الأبجديّة في وجداني، إلى رفيقة الحِلِّ والتِّرحالِ، إلى نيّرة القلب والبصيرة ومنارتي في حلكةِ الطريق، إليكِ يا أمّي..

إلى رمز الثّبات والقوّة وفأس الأرض العنيدة، إلى صبرك وعظيم مهابتك، إلى حكمتك ومواقفك الحازمة، إليكَ يا أبي..

إلى رفيقة السّرد والتّدوين، إلى صاحبة العين الأدبيّة والقلب المعطاء الطّموح، إليكِ يا أختي يا رحمةً من الله..

إلى صاحب الرّوح الطّاهرة والذّكرى العطرة، إلى حنان صمتك وجبروت كلماتك، إليكَ يا جدّي سالم..

إلى عمودِ الأدب الّذي اتّكأتُ عليه في نشر هذا العمل، إلى من حفّني بحنان قلبه ولُبابِ نقده، إليك يا أستاذ تيسير الشّماسين..

إلى كلّ مَن يجد نفسه على ناصية التّرحال في هذا العالم القاسي، إلى كلّ مكافحٍ يرسم خريطته بنفسه، إلى كلّ تائهٍ يلتمس النّور في آخر النّفق، إليك أيُّها القارئ الرّحال..

أهدي هذا الكتاب..

زيد عبدالله سالم العمرات

قبلَ بدايةِ التِّرحالِ..

عزيزي القارئ..

فكّ الأحزمة جيّدًا من حول عقلكَ وقلبكَ قبل المضيّ معي في هذه الرّحلة، خلِّ عنك (زوامير) الحياة وتزاحم المشاعر، واركب معي لأريك بعضًا ممّا حتّم عليّ الزّمن إدراكه أثناء ترحالي بين الأماكن والتّجارب والأشخاص، ومن هنا لم أجد اسمًا أنسب لهذا الكتاب من «سرديّة رحّال»..

وكما "أنّ لنا في الخيال حياة"، أريدكَ أن تتحرّر من قيود الواقع وكبرياء النّفس، دع الطّفل السّاكن في داخلك يسرح بفكره ومشاعره كما تسيح الطّيور في هجرتها شتاءً، فالمحددات الّتي تخنق تفكيرنا أحيانًا، ليست إلّا حدودًا ترسمها لنا مزاجيّة الأنفس، تمامًا كما قُسِّمت حدود العرب في اتفاقيةِ (سايكس بيكو)..

أرجو لكَ ترحالًا مُثريًا..

سرديَّة رَحّالٍ

(بين الدّروب رحّال، بِتَعبَ القُلوب رَحّال).. هذا هو أنا، العالم موطني، أو دعنا نقول أنّ الكون كلَّه موطني. أدخل قريةً وأخرج من أخرىٰ، أفردُ متاعي في كلِّ موضِعٍ أسكن فيه، وأنسىٰ جزءًا منه عند رحيلي، أخشىٰ غدر الوقت وضوْء الشّمس في الظّهيرة، وأعشق اللّيل والصّباح الباكر، أقود قلبي تارةً، وتارةً يقودني هو الآخر، ولكنّني لا ألتفتُ إلىٰ هوىٰ نفسي ولو التفت قلبي..

لديّ عائلةٌ أينما حللت، أملك منزلًا في كل بقعةٍ أمرُّ بها، وتملك هي الأخرىٰ جزءًا منّي لا أستطيع أن أبوح به لغيرها من البقاع، ولكنّني أحاول غرس فسيلةٍ أينما أمشي؛ أحيانًا لأُرشد نفسي إلىٰ طريق العودة، أو ليستظلّ بها مَنْ يأتي من بعدي، أو لكي ألاقي لذاتي جذورًا أعود لها، واستقرّ في إحدىٰ هذه البقاع.

أحمل معي صرّةً صغيرةً، فيها قلم رصاصٍ ودفترٌ وممحاةٌ، أكتب ما يمليه عليّ عقلي، وأعود لأمحوَ ما دوّنتُه عندما تُملي عليّ تجاربي بذلك، هذا

هو روتيني: أكتب وأمحو، أبحث عن ضالّتي دومًا، ولعلّ ضالّتي هي الحكمة، وسردي لرحلتي هو طريقي إليها..

في قلب الصّرّة بضعُ كسرات خبزٍ من صُنع أمّي، وعلبة زيت زيتونٍ صغيرةٌ من أشجار جدّي، ألفُّها جيّدًا في كيسٍ بلاستيكيٍّ أسود اللّون ليحافظ الزّيت على طعمه، فتعرُّضُه للشّمس يغيّر في نكهته، تمامًا كالبوح بالحبِّ أو إخفائه..

طريقي طويلٌ ولا أعلم محطّة الوصول، ولكنّني ما زلت أوسّع حدودي وأقيم الفتوحات، أقطع المسافات وأعود إلى نقطة الصّفر، أدورُ حول نفسي أحيانًا وأجوبُ الأرض أحيانًا، لا أطيقُ التّوقفَ والمكوثَ، فأنا كأجدادي رحّال!..

أثقل ما أحمله رأسي، بعلمه وفلسفته وغبائه وتناقضه وعقلانيّته وفجوره وعقائديّته والأمور اللامتناهية الّتي يحويها، عالي الكثافة فلا يطفو على سطح الماء كلّما سبحتُ لأعبر المحيط، ولذلك فإنّني أمرّن جسدي جيّدًا ليستطيعَ أن يحملَه هو الآخر..

عنوان رحلتي الغربة، وأجمل ما يلقى الرّجل في غربته الرّسائل،

أكتبها هي الأخرىٰ أحيانًا ساردًا لِمَن يقرؤني جيدًا، ولكن عادةً ما يضيع القارئ بين السّطور لعشوائية أفكاري، أين أذهب بالقصص دون إخبار البشريّة بها؟ هل أكتفي بأنين صمتي أم بحنين سردي؟

رحّالٌ يا أنا.. تجرحني الرّياح وأضمّد جراحي بالرّمال، تلدغني الأفاعي فأصنع من سُمّها ترياقًا أداوي به كلَّ سقيمٍ أجده في طريقي، تلاحقني الذّئاب وقت الغسق فأحتمي بجناح خالقي..

رحّالٌ يا أنا.. بين العيون والقلوب، بين الأزقّة والدّروب، ظمآنُ أستسقي القدر شَربةً من نصيبٍ، أبحث في الأرضِ متّسعًا لقلبي.. لا أبرحُ حتىٰ أبلغ، ولا أظفر حتىٰ أخسر، أدوّن خسائري ونجاحاتي، تناقضاتي ومبادئي، مرضي وعافيتي، ماضيَّ وحاضري، انكساراتي وانتصاراتي، فأنا في النّهاية لست إلّا كمن سبقني من الرّحّالة العرب، أرتحلُ وأدوّن، ليتغلّب عليّ قدري عند وفاتي، وأورث العالم من بعدي "سَرديّة رحّال"..

انطباعٌ أوّلُ

لا أنجحُ عادةً في صنع الانطباعِ الأوّلِ الّذي أريد أن يأخذه عنّي النّاس، وإن حدث ونجحتُ في ذلك، فهو ليس سوىٰ محضِ صدفةٍ جمعتني بشخصٍ ألقىٰ تركيزه علىٰ تفصيلةٍ دقيقةٍ من تفاصيل حديثي، أو لغتي الجسدية، أو أيّ تفصيلةٍ أخرىٰ تعكس مَن هو أنا؟!.. ما هي شخصيّتي؟!.. وما هو جوهري؟!..

يقطن في تفاصيل كلٍّ منّا عوالم لا يعرف عنها الآخرون شيئًا، كالرّوايات؛ يكتب كلٌّ منّا أحداث روايته ليقرأها عامّة النّاس، قد يحكم البعض عليها من غلافها، وقد يُحلّلها أحدهم بطريقةٍ مغايرةٍ عن الآخر، ولكنّك في نهاية المطاف لست إلّا روائيًّا، وللقارئ حريّة التّحليل ورسم الانطباعات..

ومع ذلك، اعلمْ جيّدًا أنّه مهما كنتَ كاتبًا مخضرمًا فلن يلقي أحدهم بالًا للتّفاصيل الصّغيرة الّتي ظننتَ أنّها ستوضّح لهم فكرة الرّواية؛ ليس تقليلًا بحقِّ هذه التّفاصيل، ولكنّكَ مهما حاولتَ جاهدًا وصف روتينك

في انتظارك للباص عند انتهاء عملك، أو غنائك أثناء الاستحمام، أو حتىٰ جلوسك في مكانك المفضّل المعتاد وتعاطيك السّجائر.. في نظر سائق الباص أنت لست سوىٰ بضعة قروشٍ، وعلىٰ رابط الأغنيّة الّتي تسمعها لست سوىٰ مشاهدٍ من آلاف المشاهدين، وفي عمارتك أنت لست سوىٰ صوتٍ نَشِزٍ يتمنىٰ جيرانك لو أنّك تصمت وحسب..

من يَقرؤُك أو يسمعُك لن يستطيع مشاطرتك الشّعور، ولن يستطيع فهم وطأة هذه التّفاصيل في نفسك دون أن يعيشها معك، ولو اجتمعت القلوب جميعها مكان قلبك لأحسَّت بما تحسُّ به، ولكن هل تستطيع القلوب تبديل أماكنها؟!.. نحن تمامًا كالأطفال الرّضّع، نعيش تفاصيل لا متناهية ولكن لا يُستَوعبُ منّا سوىٰ الضّحك والبكاء.

قد يبدو هذا النّص غيرَ مفهومٍ، تمامًا كما هي الكثير من تفاصيلي وتفاصيلك..

شيءٌ مِن ذاكرةِ المَكانِ

أكتبُ لكِ وأنا علىٰ أطلال قريةٍ قديمةٍ تشبهكِ، صخورها صلبةٌ راسخةٌ مهيبةُ المنظر ولكنَّها تسرُّ النّاظرين، تذكّرني معالم القرية بكِ كثيرًا، وكأنَّ قلبي يُغنّي: "أشوفك قبالي وأنت هناك بعيد"..

تُحيطُ هذه القريةَ سبعةُ جبالٍ، تغضبُ عند غياب سكّانها، ولكنّها لا تبتهجُ لحضورهم، رمالُهاورديّةٌ كاحمرار الوجنتين عند الخجل، أشجارُها متجذّرةٌ ولكنَّها شحيحةُ العطاء، تضاريسُها كالسّهلِ الممتنع؛ وعرةٌ ولكنَّها انسيابية، تُشكّلُ فيها الغيومُ وقممُ الجبال لوحةً تشبهُكِ: بياض الغيوم تتوسّطهُ قمّةُ جبلٍ بُنّيٍ داكن اللّون، تشعُّ خلفه شمس الغروب وكأنَّها عيناكِ، يُشبهكِ هذا المشهد فعلًا وأُشبِّهُ نفسي به أيضًا؛ أرجو الخير من الغيوم دائمًا، فلا أجدُ من رجائي سوىٰ انحسار المطر ومُتعة النّظر.. عجيبةٌ هذه القرية، تسرق فؤاد كلِّ مَن زارها، وتسلُب قطعةً من كلِّ مَن سكن فيها، مليئةٌ بالتّفاصيل، يعجزُ الرّحالة عن حصر معالمها في سرديّاتهم، تمامًا كما أفشل في وصفي لملامح الوجوه..

تَعلو البيوتَ هنا جذوعُ نخلٍ تنسدلُ أوراقُها علىٰ حوافِّ الأسطح لترسمَ خصلًا كما هي ضفائرُكِ.. رائحةُ بخورٍ يماني تفوحُ من نوافذَ خشبيّةٍ، وتُخالطُ رائحة الياسمين في أزقّةِ القرية، أشعلتْ هذا البخورَ عجوزٌ تسكنُ بالقربِ منّا لديها ثمانيةُ أولادٍ، أحدهم كان قد توفّي، وخمسةٌ سرقتهم الغربةُ منها، بينما يعملُ الاثنان الآخران علىٰ حراسة حدود الدّولة.

لا حاجة لي بشيءٍ علىٰ هذه الأطلال سوىٰ الشّاي والسّجائر وطيفِكِ فقط، لا يعنيني تزاحم الأقدام ولا رفاهيّة المكان، علىٰ عكسِكِ تمامًا.. أكتبُ الشّعر الرّكيك تارةً والنّثر الوفير تارةً أخرىٰ، أتسلّىٰ بألحانِ محمد عبده وفريد الأطرش، وأُجالس الذّكريات كما تُجالسُ الجدّة أحفادها..

علىٰ ذلك السّفح أجلس، أتّكئُ علىٰ بقايا أحلامي، أهرب من واقع الجهل إلىٰ منفىٰ الوعي، أهذّبُ نفسي عن أخطائها، فالنّفس كما قال البوصيري: "كالطّفلِ، إن تُهمله شبَّ علىٰ حبِّ الرّضاع، وإن تفطمه ينفطم"..

ما زال الأطفال هنا يلعبون (الطّماية) و(السّبع حجار) بين الحواري

وعلى أطراف الطّرقات الّتي باتت مشاهدتُها روتينيّةً مُضجرةً بعض الشّيء، كما هو الحالُ الرّوتينيُّ في دفني لرسائلَ لم تُبعث أبدًا عند غروب الشّمس عن السّفوح، وصياح الأمّهات على أولادهنَّ في الخارج بالدّخول إلى المنازل؛ لأنَّ الشّياطين تخرج وقت الغروب..

كَاهِنٌ

أبغضُ لعناتي، وأقربها إلى عقلي وقلبي هي تكهّني لما سيحدث، مرّ زمنٌ طويلٌ منذ أن فُوجِئتُ بنتيجةِ حدثٍ ما، فلأسبابٍ تعرفينها جيّدًا كنتُ أرسم نهايةً لأيِّ قرارٍ أتّخذه، معاذَ الله أن يكون ذلك تنبّؤًا بالقدر، ولكنَّ خطواتي لتحقيق أيِّ أمرٍ جديدٍ أُقبلُ عليه توضّح رؤيتي للنّتائج..

ومع أنَّ هذا أمرٌ جيّدٌ أحيانًا، إلّا أنَّني قد فقدتُ المتعة في خوض أيِّ تجربةٍ جديدةٍ أو دخولي لأيِّ معركةٍ، حتى أنتِ! ستبقينَ المعركة الّتي ما خضتها قطُّ.. ليس نقصًا منكِ، فأنتِ بالطّبع تملكين جُلَّ اهتمامي، ولكنَّني أدركُ أنَّه إن ظفرتُ في معركتك، سأخسرُ الكثير الكثير..

تقولُ (ماري هاسكل) في إحدى رسائلِها لجبران خليل جبران واصفةً قرارها المتناقض عاطفيًّا، والمُتزن فكريًّا في قتل آمال ارتباطهما لديه: "يتوقُ قلبي لأنْ يقتنعَ، لكنّني أعلم أنّني في النّهايةِ لا ينبغي أنْ أقتنع"..

بين الرّغبات والاحتياجات، وبين نقيضيّ العاطفة والمنطق، وعلىٰ شعرةٍ تفصلُ بين الأملِ والخيبة، أقفُ جنديًّا كاهنًا مجابهًا هوىٰ الذّات وخاضعًا لحتميّة القدر..

هذه هي معركتي..

إلى صَدِيقي

هذا السَّواد الّذي تحت عينيك أَعرفُه جيّدًا، وأَعلمُ حقَّ العلم غيظكَ من اسودادِهنَّ كلَّما لمحتْ عيناك انعكاس محيَّاك على المرايا، لم يكن تكوّنُ هذه الكهوفِ المعتمةِ بمحض إرادتِك؛ كالتّجاويفِ الطّبيعية نشأَتْ إثرَ الطّبيعة حولك، ونحتت عواملُ التّعرية ما تبقّى من وجنتيك، سلامٌ عليك.. سلامٌ عليك..

أحفظُ روتينك اليوميَّ عن ظهر قلب، لا تبرح أن تجلس دقائق معدودةً حتى تنهض مُلبّيًا نداء أحدهم، وقتكَ ليس مُلكًا لك، وكثير النّوم لا يرضي مقلتيك، والحِملُ على سنام الجمال حملتَهُ أنتَ بساعديك، الكهوف أسفل عينيك ملاذٌ ألتجئُ فيهنَّ إليك، سلامٌ عليك.. سلامٌ عليك..

لا أَقنطُ من سماع أحاديثكَ، تيقّنْ أنَّ كلامكَ ليس تذمّرًا، وأنَّ مشاكلك ليست عبثًا، التّجاربُ الّتي حُرِمتَ من خوضها لم تكن من نصيبكَ، والمجهودُ الّذي تبذلهُ كلَّ يومٍ لن يذهبَ هباءً، ستشرقُ

الشّمس في الكهوف قريبًا، وأصحابُ الكهف سيخرجون يومًا، وستعمُّ فوضاهم علىٰ وجهك السّعيد، ويعود شعور الرّضا لديك، سلامٌ عليك.. سلامٌ عليك..

(الحَجُّ خَالِدٌ)

الكنايات والألقاب هنا مهمّة جدًّا، ومنذ طفولتي وأنا أبحث عن كُنية أكتني بها كغيري من الأطفال. صديقي أكناه أبوه (أبو عقاب) نسبةً لأبي عقاب (نمر بن عدوان) أحد شيوخ البادية العربية، رافقته الكُنية إلى يومنا هذا، يعرفه الجميع بها.. البعض الآخر كان يُلَقّب بمسمّاه الوظيفي، الدّكتور الفلاني أو فلان الحلّاق، فالجميع هنا يحملون صفةً يلقّبون بها، ولكنّني كنت أحمل الكثير من الصّفات والهويّات، لم أعلم أيّهنّ تُمثّلني أكثر من غيرها، أيّهنّ أريد أن تكون (علامتي التّجارية)، إذا سألني أحدهم "أبو إيش أنت؟" كنت أقول: "أنا عزّابي، ناديني باسمي" متبعها بضحكةٍ لأجعله يكمل حديثه دون أن أزيد الموقف غرابةً.

اتّصل بي صديقي من الغربة في أحد الأيام طالبًا إيّاي مرافقة والده في قضاء حاجةٍ له في أحد المدن البعيدة عن قريتي، وبصفتي رحّالًا لا تزعجني طول المسافات، حزمت أمتعتي ومضيت في مشوارٍ لا أعلم فيه الطّريق ولا الرّفيق، ولكنّني ألبّي النّداء كما لو أن والدي العظيم طلب

منّي القيام بهذا العمل.

عندما التقيت بهذا الرّجل استقبلني بالأحضان وكأنّه يعرفني جيّدًا من قبل، طويل القامة عريض الكتفين، يداه كبيرتان وكأنهما كفتا ميزانٍ، تملؤ محياه السّمح لحيةٌ منمّقةٌ اختلط سوادها ببياضها، حوافُّها مرسومةٌ بإتقانٍ تعكس خلفيّته الهندسيّة، عيناه واسعتان تبصران كلّ ما يجرىٰ حوله، لا تغيب عنهما تفصيلةٌ واحدةٌ، يتّكئ علىٰ عصًا تتمسّك هي الأخرىٰ به دون أن يتمسّك بها، لم تكن مثل عصا جدّي، كان التّرابط بينهما واضحًا يعكس طول المدّة الّتي قضياها مع بعضهما.

جلست قليلًا وتبادلنا أطراف الحديث كباقي الرّجال، نتحدث تارةً عن الأوضاع السّياسية في المنطقة، وأحدّثه تارةً أخرىٰ عن الأوضاع الاقتصادية فيها، يعمُّ الصّمت فيسألني إن كنتُ عاشقًا، فأردّ عليه كما يردّ أمثالي من الرحّالة العُزْب، "ليس وقته المناسب"، فيوصيني باختيار الزّوجة المثالية، وتجنّب القشور الأنثويّة الخارجيّة وهو لا يعلم أنّني لا أطيق الحديث بهذا الشّأن..

خرجنا بعدها وأكملنا رحلتنا في قضاء حوائجه، وفي كلِّ مكالمةٍ له

مع موظّفيه أو أصدقائه أو أمّه أو زوجته وأولاده كان يعلّمني درسًا، كان يؤدّي الأدوار جميعها في آنٍ واحدٍ. صارمٌ يتّخذ أحكم القرارات في عمله وحنونٌ يعطف علىٰ من يحب، يعطي الأوامر ولا يعيد طلبها، فيلبّي الجميع أوامره، هل كان الجميع يخافه أم يحبه؟ أردت أن أفهمه أكثر، ووددت أنّ الأديب (نيكولا ميكافيلي) حاضرًا، لاستعان بالحاج خالد كأنموذجٍ لكتابه (الأمير) ليدرس (سيكولوجية) هذا الإنسان، توصّلت أخيرًا في قرارة نفسي أنّ هذا الإنسان جمع بين محبّة البشر وخوفهم منه.. أعجبني الأمر حقًّا، وأعجبني أكثر مناداة النّاس له بـ (حج) في كلّ مرّةٍ يتّصلون به.

كثيرًا ما نقع في فخِّ المسمّيات، هذا (أخصّائي معالجة أرجل القطط) وهذا (مدير عمليات شركة تذوّق الشّاي بالقرفة)، وهذا (رئيس قسم المحاسبة الخارجية بالنّيابة لشركات تأمين زحل الفضائية)، جميعها مسمّياتٌ نسعىٰ دومًا لتحقيقها ووضعها في سيرتنا الذّاتية، ليس هذا بالأمر السّيء، بل يعكس طموح الإنسان في السّعي بتطوير ذاته وبناء (علامته التّجارية) الخاصة به ليعرفه النّاس بهذا المسمّىٰ، ولكنّني أجزم لك أنّ (الحج خالد) لم يملك سيرةً ذاتيَّةً مكتوبةً في عمره، ولا حتّىٰ

حسابًا على موقع «لينكد إن» بالرّغم من امتلاكه لشهادة الهندسة المدنية من أرقى كليّات الهندسة في العالم، لم يعنه هذا كثيرًا بقدر ما كان يعنيه ما يقدمه للنّاس بالرّغم من كلّ النّقص الّذي شعر به طوال حياته، لم يكن (الحج خالد) حاجًّا أيْ كبيرًا في السّن، ولكنّه كان يملك فكرًا وإيمانًا أضعاف ما يملكه كبار السّن من الحُجّاج.

في آخر يومٍ لي مع (الحج خالد)، تناولنا القشطة و «حلاوة الجبن» سويًا للإفطار، وتركني بابتسامته العريضة ككلّ مرّةٍ كان يتركني فيها في الأيام السّتة الماضية، ودّعَني بحضنٍ كنت أتجنّبه في كلّ مرّة كنت أودّع فيها عزيزًا، فالرّحال يبغض الوداع كما يبغض الشّعراء الرّحيل عن ديار المحبوبة.

في طريق العودة إلى قريتي، وجدتُ رجلًا على قارعة الطّريق يأشّر بيده بينما يحمل كيسًا أحمر اللّون، توقّفت ودعوته لمرافقتي، وعندما ركب في المقعد الأمامي بجانبي قال لي: "يعطيك العافية يا أبووو.. أبو ايش ولا تهون؟" صمتُّ قليلًا وقلت باسمًا: "ناديني حج زيد".

بَعدَ مُنتصفِ اللّيلِ

بِتُّ في الآونةِ الأخيرة أتمعّنُ وأحلّلُ أقوالي وأفعالي بَعدَ منتصفِ اللّيل، لا سيّما أنّني أصبحتُ حريصًا علىٰ مقاومة وطأةِ اللّيل، وما يرافقهُ من أفكارٍ ومشاعرَ تداعبُ كلَّ قولٍ أو فعلٍ يصدرُ منّي..

بتُّ كالحكواتي في مقاهي الشّام القديمة، يملكُ مياه دجلة والفُرات من حكاياتٍ ومغامراتٍ، ولكنّه يُسقي من استمع إليه قطراتٍ من قصصه وما يتخلّلها من أحداثٍ؛ ليس بخلًا أو جشعًا، ولكنَّه إدراكٌ بأنَّ أخْذَ الشّيءِ كلِّهِ مرّةً واحدةً يفقده لذّتهُ، وأنَّ الإفراط في العطاء يُعوّد المتلقّي علىٰ طلب المزيد.

من العجيبِ أنَّ للحكواتي أثرًا في نفسي بعد منتصف اللّيل، تسرحُ هي الأخرىٰ برسم التأويلات وزخرفتها بأفكارٍ كانت معظمها بقايا حطامِ بناءِ اللّيلةِ السّابقة من مشاريعَ وأحلامٍ، للأسف أصبحتْ جميعها رُكامًا حينما اصطدمتْ بالواقع، قليلون من يعلمون بهذا الأمر..

لقد باتَ الحطام يتراكمُ داخلي دون علم أحدٍ عنه، هل كانت الكبرياء سبب احتفاظي بهذه الأفكارِ لنفسي؟!.. أم أنَّ خوفي من رؤية أحدهم للحُطام في داخلي كان وراء إخفائي لكلِّ ما بَطَن؟!.. لربما كان تجنُّبًا لنشرِ الطّاقة السّلبيّة للنّاس، أو حرصًا منّي علىٰ عدم دفعهم للإشفاق عليَّ.. لا أعلمُ ما هو السّببُ حقًّا!.. ولكنّني أعلمُ أنَّ هذا هو الأمر الصّائب..

أعدُكِ بأن أعيدَ كتابةَ ما قلتُهُ للتوِّ غدًا، ليس ضعفًا أو شُحًّا في ما يجولُ في خاطري من أفكارٍ، ولكن لأنَّ هذا النّصَّ سيندثر تحت أنقاض ما سيتراكم من حطامٍ عندما تغرق عينيّ في النّوم قُبيل الفجر..

«شي ما تطوله لا تحوم حوله»

عندما كنتُ في السّادسة من عمري، كانت شجرةُ العنبِ أو «الدّالية» -كما ننعتها هنا- أمام منزل جدّي، - رحمه الله -، في أعلىٰ عطائها بالرّغم من بلوغها خمسة أضعاف عمري، أغصانُها تتدلىٰ علىٰ أخشاب «المعرّش» القديمة كما تنسدل الجدائل علىٰ أكتاف حسناوات العرب، أوراقها خضراء ناعمةٌ كملمس القطن، قطوفُها دانيةٌ، حبّاتُها مرصوصةٌ، ينضجُ عنبها في نهاية شهر أيّار قبل جميع أشجار قريتي. فهي الأخرىٰ كبرياؤُها لا يسمحُ لها بأن تكون كالأخرياتِ من «الدّوالي».

في مطلع أيّارَ مِن تلك السّنة، بعد أن دخلتُ عاميَّ السّابعَ، واعتقدتُ أنّني أصبحتُ ناضجًا، أعجبني أحدُ القطوف البعيدة، فبالرّغم من امتلاء الشّجرة بالقطوف، إلّا أنَّ خصال ذلك القطف لفتت انتباهي؛ أخضرُ فاتحٌ مائلٌ للصّفرة يوحي بحلاوة الطّعم، يلمعُ رغم قلّة الاهتمام به، حبّاتهُ كالتّوائم تتشابه بالحجم والقوام، لم تؤثّر به الشّمس ولم يمسسهُ طيرٌ، كان حقًّا القطف المثاليّ لكلّ مَنْ ناظَرَهُ، ومع

اندفاعي قرّرتُ أنَّ هذا القطف لي وليسَ لأحدٍ غيري..

بدأتُ بمحاولة اقتطافه، تارةً أقفز فلا أستطيعُ الوصولَ إليه، وأخرىٰ أحاولُ رفع أختي علىٰ ظهري لكي تلتقطه، لم تنجح محاولاتي سوىٰ بانتشال حبّةٍ واحدةٍ منه، كنتُ قد هرستُها جرّاءَ الضّغطِ الزّائد عليها وأنا أحاول انتزاع القطف من بين الأغصان، رَميتُ الحبّة ولعقت أصابعي لأحظىٰ بالقليل من طعمه، كان الألذَّ علىٰ الإطلاق!..

حاولتُ تسلّق الجدار بجانب «المعرّش» والقفز نحوه، ولكن ذراعيَّ القصيرتين حالتا دون الوصولِ إليه. جلبتُ عصا المكنسة آملًا أن أستأصلَهُ من غصنه الّذي أبدىٰ هو الآخر تعلّقه وخوفهُ عليه، توقّفتُ بعدها خوفًا من أن أُلحِقَ به الأذىٰ، مللتُ من المحاولات حتىٰ جاءتني فكرة، ولعلّها كانت الأغبىٰ بين الأفكار، تسلّقتُ الجدار مرّةً أخرىٰ، وتعلّقتُ بأخشاب «المعرّش» كلاعبي الجمباز، رويدًا رويدًا بدأتُ أتقدم نحو القطف، باتت المسافةُ تقصر، وأنساني شغفي مشقّة التّسلق، وما لبثتُ أقتربُ حتّىٰ فجأةً وبدون سابق إنذارٍ انكسرت الخشبة وسقطتُ مسافةً تعادلُ ثلاثة أضعاف طولي، نزولي المفاجئ جاء علىٰ كاحلي الأيمن، بدأتُ عندها بالبكاء، لم يؤلمني كاحلي بقدر ما آلمني التّالي: فشلي

بالوصول لهدفٍ رأيتُه الأمثل والأشدَّ جمالًا على الإطلاق بالرّغم من كلّ محاولاتي، تبيّن لي بعدها أنَّ جدّي كان يُراقبني طوال هذه المدّة، فقال لي حينها: "يا جدّك.. شي ما تطولُه لا تحوم حوله".

لا تقلقْ يا جدّي! لن أحوم حولهُ مجدّدًا، وفي الوقت ذاته لن أصخب وأذمّه فأكونَ مِثلَ من قيلَ بهم مَثلٌ "من لا يطول العنب حامضًا عنّه يقول".. حتّى وإنْ لم ينجحْ الآخرون بالوصول إليه، سأستمتعْ بالنّظرِ إليهِ حتّى يصبحَ زبيبًا..

لُعنةُ التّفاصيلِ

لم يكن مطلبي الوحيد إلّا إرضاء أصواتٍ بات صداها يرنُّ في داخلي كلَّما دقَّقتْ عيناي في إحدىٰ التّفاصيل المحيطة بي، ومع أنّ المنبّهات الّتي تحيطنا لا تثير اهتمام الأشخاص، إلّا أنّها حفّزت سيلاني العصبي، وكأنَّها إبرةٌ تُغَزُّ في أطراف أصابع يدي. فأعقدُ حاجبيَّ كلَّما تمعّنت في شيءٍ ما حولي، أُمعِنُ النّظرَ في الخطوط والسّمات، أُحلِّل كلَّ الاحتمالات لما حدث، أو ما يحدث، أو ما سيحدث، ولكنّني في نهاية كلِّ حدثٍ أتصرّفُ بشكلٍ طبيعيٍّ لا يُوحي أبدًا أنّني إنسانٌ دقيقُ التّفكير..

دَعيني أشرح لكِ ما يحدث معي بالفعل، دعينا نقول إنَّني علىٰ صدد حلِّ مسألةٍ فيزيائيةٍ تتخلَّل الزّمنَ والسّرعةَ وتتطلّب إيجاد المسافة، أجدُ المطلوب بخفّةٍ مستخدمًا قانون: السّرعة = المسافة/ الزّمن، ولكن في داخلي أَتساءل عن مقدار التّغير في الطّاقة ومقدار القوّة المستهلكة، وعن تأثير الاحتكاك في حركة الجسم..

وبالرّغم من تفكيري بكلِّ هذه الأمور في آنٍ واحدٍ وفي أجزاءٍ من

الثّانية، إلّا أنّني أختارُ أسهلَ الطّرق لحلِّ المشكلة، ولكن لماذا كلُّ هذهِ التّعقيدات؟ لماذا تساءلتُ عن أعمقِ الأمور الّتي يجبُ ألّا أُلقي لها بالًا؟!

ولأشرحَ لكِ ما يحدث معي أيضًا، قد أفكِّرُ في كلِّ طُرق الحلّ لإيجادِ ناتج المسألة، ولكنّني قد أُهملُ طريقةَ الحلّ الصّحيحةَ وأحصل على الجوابِ الخطأ..

ما كنتُ أحاول قوله هو أنّ عقلي باتَ معقّدًا جدًّا لدرجة السّهولة، يظنّه الجميع مرتاحًا من التّفكير، ويجد أسهل الطُّرُق لحلِّ المشاكل وتحليل الأمور، وقد يُبهَر البعض بالنّاتج الخارجيّ المنعكس على تصرّفاتي وتعاملي ونسياني للأحداث العابرة، ولكنَّ عقلي في الواقع يصنع شتّى التّآويلِ ويدقِّق في جميع التّفاصيل، فترسَخ بعضُها بين خلاياه، وتتلاشى الأخريات مع مرور الوقت، ثقيلٌ جدًا بالكاد يستطيع جسمي المُتهالك حملَهُ.. ومع كلِّ هذا التّعب والإجهاد، فإنّني أجدُ هذا التّفكير ممتعًا جدًّا..

إنّها لعنةٌ غريبةٌ جدًّا!..

النَّوافِذ

قصدني عصفورٌ اعتدتُ سماعه كلَّ صباحٍ كي أعتقه من مسؤوليّة إيقاظي مبكّرًا، فما عاد قادرًا هو الآخر على التّغريد من خلف نافذتي هذا الصّباح، يتابع كسراتِ خبزٍ نسي أن يحملها منقارُ طائرٍ آخر..

هممتُ عقبها القيام بطقوسٍ صباحيّةٍ تقليديّةٍ تبدأ بتشريع نافذة غرفتي، تتبعها صلاة الفجر، ومن ثمَّ روتين العناية بالبشرة، قرّرتُ أن أضع اليوم بعضًا من واقي الشّمس الّذي قدَّمتِ ليَ النُّصحَ به قبل رحيلكِ..

أعددتُ قهوتي وأشعلتُ سيجارتي، شاقًّا طريقي بين حواري القرية الّتي غبتُ عنها قرابة التّسعة أعوامٍ، وبينما كنتُ أقود السّيارة حذرًا متجنّبًا السّقوط في إحدى الحفر أو تناول أحد مطبّات القرية عوضًا عن تناول الإفطار، لفتني منظرٌ مألوفٌ، كانت نافذةُ أحد البيوت القريبة من مدرستي القديمة، نافذةً عتيقةً، زجاجها رفيعُ السُّمك، إطارها أبيضُ متهالكٌ تمامًا كالجانب الأيمن من وجه الرَّجل الّذي يجلس خلفها، يبدو

أنَّ تلك التَّجاعيد وثَّقت علاقةً سامَّةً بين وجهه ومطلع الشَّمس من مشرقها.. تعيسُ الحظِّ لم يجد مَن ينصحه بواقي الشَّمس كما فعلتِ أنتِ لي..

أبطأتُ من سرعتي حين لمحته، وعادت بي الذّكريات إلىٰ ما قبل خمس عشرة سنة، لم يتغيَّر عليه شيء، «جلّابية» سكَّنية اللّون، كأسُ شايٍ «فرنسي» كالّتي كانت تحبها جدَّتي رحمها الله، إبريقٌ نحاسيٌّ أصفرُ كان قد تبدَّل صفاره بسواد؛ تبكي عيونُ «الغاز» حزنًا عليه هو الآخر عند كلِّ صباحٍ فيغطِّي «الشُّحبار» هيكل الإبريق الخارجي، تمامًا كما يسيل الكحل علىٰ الخدود عند بكاء النِّساء..

اختار هذا الرَّجل رؤية العالم من تلك النّافذة، لعلَّ الفرصة لم تسنح له لاكتشاف نوافذَ أخرىٰ، أو لعلَّ الظُّروف حتَّمت عليه أن يلاقي الشَّمس من هذه الزَّاوية فقط، أو ربَّما انغمس نصف الوجه المجعَّد بالمشهد من خلف تلك النّافذة ولم يستطع الخروج منه، ألا يضجر من متابعة الشّوارع ومشاهدة الطُّلاب في المدرسة كما أشعر أنا؟!.. كيف له أن يقتنع أنَّ هنالك مناظرَ أجمل؟... ألم يرَ أثر الشَّمس عليه من كثرة الجلوس مقابلها؟!.. أم أنَّه مكتفٍ بما يُبصر؟!..

لا أعلم ماذا يجول بخاطره حقًّا، ولكنّني أدرك جيّدًا أنَّ هناك مشاهدَ أكثر تنوُّعًا من المشهد الّذي اعتاد هذا الرَّجل عليه. كلُّ نافذةٍ في حياتنا ترسم لنا مشهدًا، نتعلَّق ببعضها فنرىٰ العالم من نافذةٍ واحدة، أو نكدُّ في فتح كلِّ النوافذ فنفوِّت فرصة التمعُّن في المناظر، لا نعلم أيَّ نافذةٍ تقودنا نحو الأفضل، فنحن لا نملك الحريّة بتكوين المشاهد الّتي نراها وترانا، ولكنَّنا نملك القدرة علىٰ إغلاق النّوافذ عندما تؤذينا هذه المشاهد وإن كان المنظر أخّاذًا..

توقَّفتُ علىٰ قارعة الطريق قليلًا بعدما تجاوزتُ مدرستي، وجدتُ بقايا رغيف خبزٍ يابسٍ بجانب إحدىٰ سلّات القمامة، أخذتُ الرَّغيف وعدتُ للمنزل لكي أطعم العصفور السّاكن خلف شبّاك غرفتي، في طريقي سأضع مزيدًا من واقي الشَّمس لأتلافىٰ ظهور التَّجاعيد علىٰ وجهي..

عِندَما أَقولُ وَداعًا

عندما أقول وَداعًا، لا تنطقي بكلمة! أعلمُ أنّني قد أخبرتكِ بأنّني المستمعُ الأفضلُ لكِ دائمًا؛ لقلّة كلامي وحرارة انفعالي مع أحاديثك وقصصك، ولكن هذه المرّة.. أعذريني! فأنتِ بكلِّ عظمتكِ لا تستطيعين الكلام، ولا حتّىٰ أنا! ليس بسببكِ أنتِ، أو مللًا من أحاديثكِ، معاذَ الله أن يكون ذلك، ولكنَّني لا أعتقدُ أنَّ هنالك أحدًا علىٰ وجه البسيطةِ قادرٌ علىٰ جمع كلِّ الكلام في ثمانيةٍ وعشرينَ حرفًا، وذكرِهِ كلِّه في دقائقَ معدودةٍ قبل الرّحيل..

عِندما أقول وَداعًا، أرجوكِ لا تُعطيني وعودًا بأنّنا سنبقىٰ علىٰ اتصال، لا تتصنعي وعودًا بأنّنا سنلتقي مُجدّدًا، ولا تُعطيني رقم هاتفكِ الجديد. عِندما أقولُ وداعًا، لا تُكلّميني عن أيّامنا الّتي مضت، ولا تشكريني علىٰ وجودي معكِ في أوقات الشِّدة، ولا تعبّري عن مدىٰ إعجابكِ بشخصيّتي، ولا تعتذري عن أخطاء كُنتِ قد ارتكَبتِها.

عِندما أقول وَداعًا، لا تُوبّخيني لأفعالي السّاذجة، ولا تُلقي عليَّ

اللّوم لفشلي في اكتساب قَلبِكِ المُحصَّن في أسوار قلعة الخجلِ؛ كلّما اقتربتُ منها نسيتُ مهمّتي، ولبثتُ أتأمّل جمال معالمها..

عِندما أقول وَداعًا، انظري في عيني فقط، واتركي العيون تَغرفُ الكلامَ، دَعي عينيكِ تذرف الدّمع علىٰ كتفي، سأحاولُ بكلِّ قواي أن أتخطّىٰ حواجزي وأُشاركِ الدّموع، ولكنّني لا أعدُكِ بذلك.

عِندما أقول وداعًا.. لا عليكِ، لكِ حرّية التّكلّم، تحدّثي بما تريدين، ارسمي ما تريدينَه من الآمال، أعطيني قَدر ما تَشائين من الوعود الكاذبة، أسْمِعيني كلَّ ما قد يطيب أو يُغثُّ له خاطري، كوني صريحةً أو كاذبةً، قُولي ما تَشائين، ولكن لا تَنتظري منّي تفاعلًا هذه المرّة؛ سأكونُ قد حملتُ أمتعتي وهممتُ بالرّحيل.

عِندما أقول وَداعًا، سأدفنُ رسائلي في جوف الأرض أو سأُحرقُها؛ ليس عارًا من فشلي في إيصالها، ولكن تجنّبًا من أن تراها والدتي بعد خروجي في الصّباح، فتكتشفَ أنّني كنتُ قد كتبتُ في أنثىٰ غيرها!..

السَّكَن

ضوْءٌ أحمرُ خافتٌ ينبثق نورهُ عبر نافذةٍ توسّطت مجموعة نوافذَ أخرىٰ في عمارةٍ تتكوّن من ستّة طوابقَ، أناظرها من أسفل الشّارع، ونصفُ ستارةٍ متهالكةٍ يعانق هذه النّافذة، متشبّثًا بالجسر أو ما يسمونه «الماسورة» الَّتي تحمله، يبدو أنّ الجسر أُجبِرَ هو الآخر علىٰ التّمسّك بقاعدته، يلتفُّ حوله شريطٌ لاصقٌ، استخدمَه المقيمُ في هذه الغرفة بعد تكرار سقوط السّتارة عليه أثناء نومه علىٰ سريره بجانب تلك النّافذة، لا يعنيه سقوط الجسر عليه ولا تعنيه رائحة السّتارة المعجّجة بدخان السّجائر، لا يهتمّ للونها ولا لمنظرها، بل يرجو أن تؤدّي الغرض من وجودها فقط؛ إذا غطّته فدفءٌ وأمانٌ، وإذا بقيت معلّقةً فهي سترٌ وغطاءٌ، كلُّ شيءٍ هنا عشوائيٌّ، ولكن سهل الاستخدام، تسقط المظاهر كما تسقط السّتائر، لا داعي للتنمّق هنا، فأنت في السّكن!..

في تلك الشقّة يسكن مجموعة شبّانٍ، ربّما اثنان أو ثلاثة، ربّما خمسة، ربّما عشرة، لا أعلم حقًا إن كانت تلك شقّةً سكنيّةً أم فندقيّةً، فكلّ

صباحٍ أرىٰ وجهًا جديدًا، أحدهم يلبس رداء الأطبّاء الأبيض، تعتلي قبّعة المهندسين رأس آخرٍ، يربط أحدهم ربطة عنقه في المصعد، والآخر يغلق زرّ ثوبه كحليّ اللّون. يعطيني أحدهم -أعتقد أنّه طالبٌ جامعيٌ- كتبه لأحملها بينما يعقد ربّاط حذائه قبل وصوله للطّابق الأرضيّ، عشوائيون جميعهم، رأيت أحدهم يحلق لحيته بشفرةٍ زرقاء علىٰ الشّرفة البارحة!.. علىٰ الأغلب أنّه كان جنديًّا.. وعلىٰ اختلافاتهم كلِّها، إلّا أنّهم يتشابهون في أمرين: عجلتهم للّحاق بمواعيدهم الصّباحية، وتحيّتهم الَّتي وجب أن يتخلّلها «صباح الرّزق»..

في المساء تعلو الضّحكات وراء باب تلك الشّقة، مجموعةٌ من الأحذية أمام الباب تجتمع ليلًا لتروي لبعضها ما رأت بينما كان شبّانها يمتطونها خلال النّهار، رائحة جواربَ تختلط بنسيم عطر أحدهم، بينما يأتي بخارٌ في الأفق ينبثق من وعاءٍ بنيّ اللّون يحمل رائحة التّوابل، "كبسة يا عيال"، يقول أحدهم، فيردّ الآخر: "لو كنت بنت كان تزوجتك" مادحًا إيّاه لمهارته العالية في الطّبخ..

لا تكليف ولا تشريف في هذا السّكن، يأتيه الضّيوف دومًا ولا يجلبون معهم سوىٰ القلوب الصّافية والحكايات، وربما زجاجةٌ من

عصير المانجا (لتغميس السجائر) كما سمعت أحدهم يقول معللًا سبب شرائها بعد صخبهم تجاهه بأنّه كلّف نفسه كثيرًا.

كلُّ واحدٍ في هذه الشّقة يملك مهاراتٍ وصفاتٍ تؤهله ليتولّىٰ وظيفةً أو منصبًا معينًا، أحدهم كان كسولًا لا يُطيق القيام بالأعمال المنزليّة، فتولّىٰ منصب مسؤول المشتريات، الآخر كان ماهرًا في الحوار وحازمًا في رأيه، فوكّلوه بمنصب مسؤول العلاقات الخارجيّة، يتفاوض مع مالك الشقّة فيخفِّف من الإيجار أحيانًا، ويَرشي حارس العمارة لكي يملأ خزّانَ المياه الخاصَّ بشقتهم قبل باقي السّكّان، ويوطّد العلاقات مع الجيران فيحصل بذلك أعضاء الشّقة علىٰ طبقٍ من الحلويّات كلّ فترةٍ، لا تعنيهم طريقة عمله، الأهمّ هو تخفيض الإيجار، ووفرة المياه، وقليلٌ من «الحلو»..

آخرٌ هناك مُولعٌ بالنّظافة، فنسّب نفسه عن الآخرين مسؤولًا عن التّدبير المنزليّ، فلا أحد فيهم علىٰ قدرٍ كافٍ من النّظافة البيتيّة لكي يتولّىٰ هذا المنصب، واحدٌ آخرٌ عاش نصف عمره بين هذه السّكنات فكان الأعتىٰ في الطبخ، تكفيه توابله الغريبة الّتي يحفظها في علبٍ شفافةٍ ذات أغطيةٍ حمراء، ويحصل علىٰ الإمارة الأقوىٰ في إعطاء الأوامر، يأمر

مسؤول المشتريات بشراء الأغراض، ومسؤول التّدبير المنزلي بجلي الأطباق، يحفظ الآخرون مكانته؛ فهو كالسّفير، يصنع لهم بضعًا من أطباق أمهاتهم، وبالرّغم من عدم تطابق النّكهات بالطّبع، فإنّ ما يصنعه هذا الطّبّاخ قطعةٌ من الوطن، قليلها يشبع العين والفؤاد.

تمضي ليلة العُزّاب ما بين أفكارٍ لمشاريعَ وحساباتٍ لتكاليف الزّواج، ومناظراتٍ حول كرة القدم، ونقاشاتٍ حول نشأة ّالرّأسماليّة، وانقسامِ حزب البعث في العراق وسوريا، يشتم أحدهم حظّه أثناء لعب الورق، ويشيد آخرٌ بموقفٍ رجوليٍّ لأحد الجالسين أثناء الحديث، يقوم أحدهم مُقلِّدًا مديره في العمل، أو محاضرهِ في الجامعة، وتتعالىٰ معه أصوات الضّحكات، وعلىٰ الشّرفة يخرج أحدهم حاملًا هاتفه وبعضًا من الخجل، ليتّصل بعشيقته ويعتذر منها للمرّة السّابعة والخمسين؛ لعدم إجابته علىٰ اتصالاتها في عشر الدقائق الفائتة، معللًا ذلك بانشغاله مع أصدقائه.

كلُّ شيءٍ هنا عشوائيٌّ. كلُّ شخصٍ في هذا السّكن يحمل معه حُلمًا يسعىٰ لتحقيقه، وقلبًا يكدُّ في الحفاظ عليه من التلوث.. في هذا السّكن يسكن العاقل والعاشق، الكادح والحالم، الغنيّ والفقير، العائل والمُعيل،

النّشيط والكسول، الخائف والمقدام، يختلفون في عاداتهم وتقاليدهم وغاياتهم ووظائفهم ومشاعرهم وحتّى ملابسهم، ولكن يجمعهم قلب رجلٍ واحد، ترك وطنه ليشقّ طريقًا جديدًا غير ذلك الطّريق الذي اعتاد عليه في طفولته.

في آخر اللّيل يغادر بعضهم من أمام شقّتي، أستمع لآخر فتاتٍ من ضحكاتهم عندما يغادرون باب العمارة، ويبقى الآخرون في السّكن يتجهّزون للنّوم، يعتني أحدهم ببشرته قبل النّوم، بينما يشعل الآخر آخر سيجارة في العلبة، يودّع العاشق محبوبته بكلمة «بحبكي»، ويقوم مسؤول التّدبير المنزليّ بوضع آخر كيس قمامةٍ في الخارج، يوزّع أفراد السّكن أنفسهم بين الغرف والوسائد، لا تعنيهم المساحات، ولا حتّى شروع النّوافذ، وإذا لم يجدوا الأغطية الكافية، أسقطوا السّتائر والتحفوا بها..

أَجْوف

هذا النّصُ أجوفٌ.. خفيفُ الكثافةِ، بالكاد أستطيع الإمساك به، تمامًا كبلالين الأطفال الّتي تُباعُ في الشّوارع..

هذا النّصُ أجوفٌ.. كما بَطنُ الحوت في جوف المحيط؛ بقايا عظامٍ وجماجمَ كان أصحابُها أبطالًا في قصصٍ لم يسمعوا عنها أبدًا، اشتهروا فوق الأرض بينما كانت عظامُهم تعزفُ الطّبولَ في أمعاء الحوت..

هذا النّصُ أجوفٌ.. كما كان الأوروبيّون يعتقدون أنَّ الأرض مجوّفةٌ في أساطيرهم، وأنَّ مملكة «أغارثا» تقطن في لبِّها، فبقدرِ ما كانت الأرض فارغةً من الدّاخل، إلّا أنَّها احتوت في جوفِها مملكةً بعظمتها، بسُكّانها، بحُروبها وسلامها، بجَبروتها وضعفها، كما هو هذا النّص..

هذا النّصُ أجوفٌ.. كالفعل الأجوف، ثاني حروفه معتلٌّ، كجميع العلّات الّتي يحملُها هذا النّص..

تَجوُّفُ هذا النّص لا يعني بالضّرورة ضعفهُ، كتابتي له لا تعني

بالضّرورة تجوُّف أفكاري، حاجتي لكتابته لا تعني أنَّني أرغبُ بذلك فعلًا، فحاجتُنا لخسارة الدّهون لا تعني بالضّرورة رغبتَنا بلعبِ الرّياضة..

هذا النّصُ وحيدٌ وأجوَفٌ لأنَّني لا أستطيعُ ملأه؛ خوفًا من أن أُنادي فيه ولا أسمع صدىٰ صوتي يعود نحوي كلَّما ندهت، أو خوفًا من ازدياد كثافته عند امتلائه، فلا يجدُ الأطفالُ -مثلي أحيانًا- ما يلحقونَ وراءَهُ بين الأزقّة..

«طنْجرةُ أُمِّي»

لو سُئلتَ يومًا: لديكَ ثلاثُ جملٍ لوصفِ ذاتك لشخصٍ يجهلك تمامًا، ولنقلْ إنَّ هذه هي فرصتكَ الوحيدةُ لتعريف هذا الشّخص بك، وإنَّ هذا الشّخصَ هو الشّريكُ المثاليُّ لكَ لما تبقّى من حياتِك، ماذا ستقولُ في هذه الجمل؟

تخيّل معي الآن أنّكَ ستتناول أكلتكَ المفضّلة الّتي تطبخُها والدتك، دخلتَ إلى المطبخ قُبيل العصر، نظرت نحو «الغاز» فوجدتَ وعاءً يترنّحُ على نارٍ هادئةٍ أشبه بالقارب الّذي يطفو على سطح البحر، منظر الوعاء من الخارج طبيعيٌّ جدًّا، «ستانلس ستيل» أحمر كان قد خسر من لونه بفعل «الخريس» كأيٍّ وعاءٍ آخر، ولكنّكَ في قرارة ذاتكَ تدركُ جيّدًا حجم العظمة الّتي تكمنُ في جوفهِ؛ فهو الآخر، وبالرّغمِ من تشابهه مع باقي الأوعيةِ، إلّا أنَّ لُبَّهُ مليءٌ بالنّكهات الّتي قضت والدتُكَ عشرين عامًا وهي تتلاعب بها حتّى آلت إلى ما آلتْ إليه، بعد أن يُسكبَ الطّعامُ وتتناولَ معه ما تبقّى من أصابعكَ من وجبة البارحة، أراهنُ على أنَّكَ

ستقول: هذه ألذّ وجبةٍ تناولتها علىٰ الإطلاقِ، وأمّي أفضل من يطبخها!..

ولكن، هل تساءلت يومًا: ما هو السّرُّ في هذه اللّذّة؟ ولماذا ترىٰ هذه الوجبةَ الألذَّ مطلقًا؟ ماذا يقطن في تفاصيل هذه الوجبة؟ وكيف تُعدُّها أمّي هكذا؟ وكيف يختلف وعاء منزلنا عن الأوعية في باقي المنازل؟

إنَّ البشر كما هي هذه الأوعية، يكمنُ في جوف كلِّ واحدٍ منّا تفاصيلٌ ومكوناتٌ عدّةٌ تُميّزنا عن غيرنا، يُضيفُ بعضنا توابله علىٰ هواه أو علىٰ ما تُمليه عليه ظروفه بأن يُضيف، المكوّن الرّئيس هو الطّفل الداخليُّ الّذي يعيشُ في كلِّ واحدٍ منّا، نبقىٰ نضيف عليه ما نضيف من المكونات؛ ليخرج بنكهته النّهائية.

كلُّ هذه التّفاصيلِ لا يعلمُها أحدٌ حقَّ المعرفة، ولكنْ لا يستلذُّ بها إلا من تذوّق هذا الطّبق، لا يعلمُ النّاسُ ما أصابكَ وما هي الرّحلةُ الّتي مررتَ بها وأنتَ تُعدُّ ذاتكَ، ولكنَّ هناك أشخاصًا يعلمونَ من هو حقًّا أنتَ وما ستؤول إليه؛ ليسَ لمعرفتِهم بتفاصيلكَ، وإنّما بسبب لذّة رؤيتهم لما أنتَ عليه، فكما كنت تجزمُ بأنَّ طبخ والدتك هو الأفضل

إطلاقًا برغم جهلك المكونات، فإنَّ هناك أشخاصًا يرونكَ الأفضل في العالم رغم غيابهم عنك..

ولذلك، لو أُتيحت لكَ ثلاث جملٍ لوصف نفسكَ مجدّدًا، هل ستتمكّنُ من كتابة المكونات ووصفة الطّبخ؟ أم أنَّكَ ستكتبُ ما يجعل المتلقّي يتذوّق منك ما تُريدُهُ أن يتذوّق؟ لكَ حريّةُ الخيار.. أمّا أنا، فقد بلغتُ من الجوع عتيًّا، سأذهبُ لأتناول ما تركَهُ أخي في ذلكَ الوعاء الأحمر في الرّفّ الثّاني من رفوف فرن منزلنا، إنَّني جائعٌ حقًّا!..

ناضِج

تيقّنتُ مؤخرًا أنَّ الحياة فخٌّ خبيثٌ، وأنَّ سباقَنا نحو النّضج منذ نعومةِ أظفارِنا ما ظفرَ فيه الفائزونَ قطُّ، وأنَّ الأرنب كان أكثر عقلانيّةً من السُّلحفاة عندما أَعلنَ نفسه فائزًا دون إكمال السِّباق..

كان الجميعُ يُشيدُ بنضجِ فكري منذ صغري، "تفكيره أكبر من عمره" قالت إحداهنَّ لِوالدتي مادحةً إيّاي!.. أدركتُ الآن أنَّ النّضج قبل أوانه لم يكن إشادةً بحقّي، بل كان أثقالًا بتُّ أحملها علىٰ ظهري منذ صغري.

كنتُ أنظرُ لبعض الأفراد من جيلي يُجارون اهتماماتٍ كنت قد سئمتُ منها في مطلع المراهقة، ولكن، ها أنا اليوم، أقفُ وحيدًا بينهم.. الانعزالُ عن أحاديثِهم يُنفّرهم مني، ورغبتي في انعزالي عنهم تروقُ لي، يُقلقني التّكيُّف مع مناخهم، فلا أريد أن أكون أقلَّ نضجًا ممّا أنا عليه، ولا أريدُ أن أكون أكثرَ نضجًا ممّا هم عليه.

الاستماعُ للموسيقى بصوتٍ صاخبٍ يُزعجني، ومجاراةُ أحاديثهم ترهقني أحيانًا، صوتُ عزلتي في غرفتي يصدحُ عند انتهاء دوامي كالّذي يُردّد: "لا تخسرْ نضجَك! عُدْ هنا إلى مملكتك"، فيرتدُّ صداهُ مصاحبًا أصواتَ ضحكاتهم قائلًا: "ما زِلتَ في عمرهم! اذهبْ وشاركْهم الضّحكات".

ما يُرعبني حقًّا أنَّ التّخلي أصبح عندي عادةً، توقّفتُ عن بذل المجهود لكي أُثبت وجهة نظري، ومشاركة تفاصيل يومي مع من حولي لمْ تعدْ تُبهجني، غايتي الوحيدة هي إنهاء يومي بأقلِّ الخسائر وحسب. وبالرّغمِ من هذا كلِّه، فإنَّني أجدُ هذا الأمرَ ممتعًا للغاية! تروقُ لي مشاهدةُ الأرنب وهو يلعبُ خارجَ مضمار السِّباق، بينما تُواصل السُّلحفاة السّعي نحوَ النّهاية..

عُلبةُ فُولٍ

تسكّعتُ في حواري أفكاري اللّيلة أثناء محاولتي إعدادَ صحنٍ من الفول كالّذي كانت تفوحُ رائحتُه في حارتنا عند عودتي في الصّباح الباكر من عملي اللّيلي، وبينما كانت دموعُ التّماسيح تفيضُ من عينيَّ أثناء فرمي للبصل، تذكّرتُ ما قالته لي إحداهنّ: "إنّ المدن تنطفئُ بعيونِ ناظريها لغيابِ أهلها"، ولسوء الحظِّ انطفأت عينُ «الغاز» أمام عينيَّ لغيابِ مصدر الوقود.. تأخّر الوقت، ولم يكن بوسعي سوىٰ أن أُلقيَ البصل وما بلَّله من زيتٍ في القمامة، فيصبح بذلك لبُّ البصلة وقشرها في نفس المقام، شعرتُ بإحساس النّزعة البرجوازيّة.. لم يكن مريحًا البتّة!..

أذكرُ في إحدىٰ المرّات عند خروجنا من أحد المطاعم الفاخرة الّتي أكادُ أجزمُ أنّ زبائنه لم يشتروا الفول المعلّب في حياتهم، كنتم قد شكوتم لي برودة الطّقس وقسوة حياتكم لاضطراركم انتظار السّائق في الخارج حتّىٰ قدومه، فبقيتُ بجانبكم حتّىٰ قدوم «الشوفير»، أخذت عقبها

«تكسي أصفر» إلى مكان إقامتي؛ خمسةُ دنانيرَ أجبرتني على أكل الفول المعلّب للأيّام الأربعة التّالية.. لم يكن الفول لذيذًا عندها كما اعتدت عليه!..

مضت أعوامٌ بعدها، وعدتُ لذات المطعم مع أحد السّائقينَ الّذين يعملون معي، تناولنا الطّعام اللّذيذ وتعاطينا «السّيجار»، لم أضطرَّ للانتظار خارجًا عندها، وكلّفني راتب السّائق أضعاف ما دفعتُهُ أجرةً لسائق «التّكسي» الأصفر، كانت المدينةُ مضيئةً تمامًا كما في السّابقِ بالرّغم من اختلافِ سكانها..

شعرتُ بالجوعِ عقب عودتي للمنزل، وجدتُ علبةَ فولٍ «مُدَمَّسٍ» في أحدِ الرّفوف، فتحتُها وتناولتُ الفولَ «نقرشةً» دونَ طبخه، كان طعمُهُ لذيذًا جدًّا..

جَميعُنا يَحتاجُ إلى شَاهِدٍ

بينما أجلسُ مُنهكًا في أحد أروقة المستشفى عقب انتهاء عيادتي، وفي خضمٍّ معركةٍ ينتظر فيها المرضى بفارغ صبرهم دورهم في عياداتٍ مختلفةٍ، كان مقابلي طفلٌ بشعرٍ أجعدَ يجلس على الأرض، يداه أصغرُ من أن تتحمّلا عبءَ الإمساك بقلمٍ قبل أوان نضجها، ورقةٌ بيضاءُ تشبه أوراق اليانصيب، كان هذا الطِّفل يلقي بمواهبه غيرِ المفهومة عليها، تمعّنتُ جيّدًا فوجدتُه تارةً يرسم شمسًا وأخرى يكتب اسمًا، كان يكتب هذا الاسم ويفرُّ راكضًا، صوت ضحكاته يسبقه نحو أمِّه بينما الضّوءُ الّذي يصدر من حذائه يحاول اللّحاق به..

ما أن يصل إلى أمّه حتّى يقفز نحوها، فيغوص في الرّداء «الجلباب» الّذي ترتديه.. "ماما، ماما، شوفي شو كتبت!" يقول الطّفل متلهّفًا: "بجنن كتير.. حلو حبيبي"، تردُّ عليه أمُّه وملامحُ الانبهار تعتري وجهَها الّذي سئم هو الآخر الانتظار لمقابلة الطّبيب، ما أن يسمع الطِّفل هذا الرّد حتّى يعود مسرعًا نحو بقعته الفنّية، يبدو أن الجلوسَ في تلك الزاوية أخرج الفنّان الّذي يقطن داخله!..

بقي هذا الطِّفل علىٰ هذا الحال، قليلًا يكتبُ وقليلًا يرسمُ، يركض نحو أمِّه ليريها ما صنع، ويعود مجدّدًا ليكتب قليلًا ويرسم كثيرًا، وأنا جالسٌ علىٰ ذاك المقعد المقابل لهذا الطِّفل؛ صدّقني لم أكن مستمتعًا بصوت ركضه وضحكاته، ولكن ما شدّ انتباهي هو رغبةُ الطِّفلِ الملحّةُ في إطلاع أمّه علىٰ كلِّ ما يرسمه، فلم تكن الورقة وحدها كافية لتشهدَ علىٰ خربشاته وكتاباته، إنّما والدته -والّتي علمت أنّ اسمها «شهد» عندما نادتها الممرضة- كانت فعلًا هي شاهد هذا الطِّفل الوحيد، فلم يأبه أن يُريَ أحدًا غيرها ما كان يُشكّل علىٰ تلك الورقة.

لعلّ هذا الطِّفل يقطن داخل كلِّ واحدٍ منّا، فكلٌّ منّا يحتاج إلىٰ شاهدٍ يأخذه إلىٰ بعض تفاصيل حياته الماضية.. شخصٌ يعرف تفاصيلك جيّدًا، كالمؤرّخ يُدوّن في عقله ووجدانه كلَّ ما مررتَ به في حياتك، وهذا لا يعني تدوين الأحداث الرّئيسة فقط، وإنّما حتّىٰ التّفاصيل الّتي قد تنساها أنت، فكم من مرّةٍ نسيتَ شيئًا عن نفسك، فقام أحدهم بتذكيرك ماذا كنت! هل خطر هذا الشّخص في بالك الآن؟

فلْتتخيّل الآن أنّك بصدد تأليف كتاب، وهذا الكتاب كتابُك أنت؛ أي أنّك أنت الكاتبُ والشّخصيةُ الرّئيسة، وحياتك هي فكرته، ما قيمةُ

هذا الكتاب إن لم يقرأه شخصٌ آخر؟! تخيّل كم من الأحداث التّاريخيّة اندثرت منذ خلق الإنسان قبل مئات آلاف السّنين فقط لغياب شاهدٍ عن هذه الأحداث؟!..

لا يستطيع المرءُ أن يكون المؤلّف والقارئ الوحيد لنفسه، فجميعُنا نحتاج إلىٰ شاهد، وإن قرأنا أنفسَنا، لن نتمكّن من معرفة ما بين السّطور دون مساعدة أحدهم، ولن نرىٰ أنفسنا بالصّورةِ الحقيقية دون التّمعّن في انعكاسها في أعين مَن يشاهد حياتَنا، فاختر شاهدك بعنايةٍ..

بقيتُ جالسًا علىٰ ذلك الكرسيّ وأنا أطالع الزّاوية المقابلة، وددتُ لو أنّي كنت أصغر حجمًا؛ لذهبت وجلست مكان الطّفل، لعلّي أُبدعُ بكتابة اسم أحدهم أو برسمِ الشّمس، جلستُ أُناظرُ الزّاوية حتّىٰ جاء الطّفل وأمّه، يدٌ يحمل فيها ورقتَه البيضاء، ويدٌ يحمل فيها علبةً بلاستيكيّةً شفّافةً تحتوي علىٰ أحد أسنانه الّذي كان للتوّ قد خلعه، أجزِمُ أنّه متحمّسٌ لوضعه تحت وسادته فتأخذه جنيّةُ الأسنان ليلًا وتستبدله بالنّقود، ولعلّ اسم هذه الجنيّة هو «شهد»..

«سَفينةُ ثيسيوس»

بعد وفاة «ثيسيوس»، أحد ملوك «أثينا» وأسطورةٌ من الأساطير الإغريقيّة، قرّر أهل المدينة الحفاظ علىٰ سفينته تخليدًا لذكراه وانتصاراته العظيمة، وبمرور الوقت، بدأ خشب السّفينة بالاهتراء، ولخوفهم علىٰ القارب من الهلاك، قام أهل «أثينا» بتبديل كلِّ قطعةٍ تهتلك؛ يقتلعون ما أهلكه الزّمان ويستبدلونه بالجديد من الأخشاب عالية الجودة.. خمسةٌ وعشرون عامًا وهم علىٰ نفس هذه الوتيرة، حتّىٰ تبدّلت كلُّ قطعةٍ في تلك السّفينة وأصبحت أخشابها جديدة بالكامل، ومع كلّ هذا التّغيير، فقد بقي اسمها «سفينة ثيسيوس» ومنذ ذلك الوقت انقسم النّاس حول هذه المفارقة: هل زالت هوية السّفينة بتبديل أخشابها؟! كيف اجتمع أهل المدينة علىٰ قلبِ رجلٍ واحدٍ واتّخذوا هذا القرار؟! لماذا لم يغيّر أهل المدينة الخشبَ كلَّه مرّةً واحدةً عوضًا عن الانتظار خمسًا وعشرين سنة؟! كيف يملك هؤلاء النّاس الجَلَدَ للاستمرار بالمحافظة علىٰ هذا الإرث؟! صاحبتني هذه التّساؤلات في رحلتي الَّتي أروي بعض تفاصيلها لكِ قبل النّوم اللّيلة.

بينما كنتُ ظمآنًا أجرّ قدميّ بين الرّمال، أقبلتْ عليّ طيورٌ زهريّة اللّون تدعوني للقدوم إلىٰ قريتها خلف الجبل الَّذي كنت أمشي اتجاهه، لبّيتُ هذه الدّعوة فضولًا بمعرفة أهلِ هذه القرية، ولعلّي أجدُ الماء هناك، فأروي به عطشي، وعندما بانت القرية، أذهلتني أسوارها، شاهقةُ الارتفاعِ ومنضبطةٌ جماليًا وهندسيًا، كأنّني أناظرُ أسوار قصر الحمراء، وعندما دخلت رجوت في نفسي حسن الاستقبال من أهل القرية، فلم ألقه! ولكوني أحسن الظّن دائمًا، بقيتُ أنتظرُ أحدهم حتّىٰ يسقيني الماء، جلست أبتسم لكلّ من أرىٰ، لعلّهم يلاقونني بمثل حسن نيتي، إلىٰ أن قام أحدهم بفتح بئر الماء أمامي دون سؤالي إن كنت أريد الشّرب منه أم لا، بدأت أشرب حينها حتّىٰ ارتويت، ولم يقولوا لي عفوًا بعدما شكرتهم.. أحزنني جمال قريتهم وقُبح أسلوبِهم، فقلت لنفسي لعلّي أمكث قليلًا، غيرَ مزكٍّ نفسي عليهم، أحاول تغيير ما أستطيع، راجيًا انعكاس جمال القرية علىٰ أخلاق سكّانها..

حلَلت عندهم عامين أحاول بكلّ ما أوتيت من حكمةٍ وأسلوبٍ أن أُقنعهم، فوجدتُني كالَّذي يرجو صيد السّمك في رمال الصّحراء، تيقّنت حينها أنّني لست «باتمان» لأنقذهم من هفواتهم، وأنّ محاولاتي في

تغييرهم غيّرت منّي أنا عوضًا عنهم، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11]- صدق الله العظيم. رحلت عنهم بعدها وبقوا في قوقعتهم يظنّون أنّهم أكثر أهل القرىٰ ضيافةً وكرمًا!.. قطعًا لم يكونوا كما كان أهل مدينة «أثينا».

كانت بدايات عودتي للتّرحال بعدها مثل حياة «الكنغر» في صحاري «أستراليا» القاسية، ماءٌ شحيحٌ، جفافٌ قاحلٌ، وعشبٌ يابسٌ كفيلٌ بأن يشبع هذا الكادح، وبالرّغم من قدرتنا علىٰ التّكيف في هذه الظّروف، إلّا أنّني وضعت خطّةً للخروج من دوّامة التّكيّف الّتي استنزفت جميع طاقاتي في الوصول إلىٰ الجهة المنشودة، جلست في ظلِّ جبلٍ قريب، أخرجت ورقةً وقلمًا وبدأت أدوِّن ما أملكُ من مزايا وأحوّلها إلىٰ فرصٍ: قدماي قويّتان لذلك يجب عليّ المشي أكثر، جلدي أسمر لذلك أستطيع تحمُّل أشعّة الشّمس لمدّةٍ أطول بحروقٍ أقل.. بقيت أدوّن كلَّ إيجابية وسلبيّة أملكها، تارةً أخلق فرصةً منها، وتارةً أخرىٰ أتجنّب هفوةً أكاد الوقوع فيها. طويت الورقة جيّدًا بعدها وبدأت بتنفيذ ما وضعت فيها. فالخطط تبقىٰ كلامًا إن لم تصاحبْها الأفعال، مشيت مسافةً حتّىٰ لم أعدْ أشعر كما يشعر «الكنغر».

في نصف مسيري رأيت مجموعةً من الزّرافات تأكل من أوراق شجرةٍ كبيرةٍ في منتصف الصّحراء، وبجانب تلك الشّجرة مجموعة سيّاراتٍ فارهةٍ يجلس مالكوها فيها متنعمين ببرودة المكيّف الَّتي حُرِمت منها طوال فترة مسيري، وعلىٰ عكس أهل القرية السّابقة، ناداني هؤلاء! فلبّيت نداءهم، جلست في الكرسيّ الخلفيّ لسّيارة دفعٍ رباعيّ سوداء اللّون، كان الماء باردًا كما كنت أرجوه.

أجبروني بعدها علىٰ تناول الطّعام معهم، فأكلت حتّىٰ بلغت من الشّبع أضعاف ما قد بلغت من الجوع، مددتُ قدميَّ علىٰ الكرسيّ، وأسندت رأسي علىٰ الباب وأخذت قيلولةً لم أنعم بمثلها منذ زمنٍ طويلٍ! استيقظت فجأةً علىٰ صوت ضحكات الرّجال والزّرافات، جاؤوني جميعهم بعدها، وأقنعوني بالبقاء معهم؛ لأنّهم يعلمون محطّة وصولٍ أفضل من الَّتي أرنو إليها.. نظرت إلىٰ الأفق، وإذْ بالشّمس تحرق ما تبقىٰ من السّراب، لا شيء سوىٰ الرّمال أمامي!.. والجلوس في تلك السّيارة طاب لي أكثر، ولكن ذكّرت نفسي حينها بما تحمله تلك الورقة الّتي كتبتها لنفسي، فاعتذرت لهم وأكملت مسيري، ربما كانت مرافقتهم أسهل لي من مسيري في الشّمس، ولكن وجهتهم لم تكن كوجهتي،

والتّغيير الَّذي أطمح إليه لم يكن سيتحقّق لو قبلت بعرضهم، تركتهم يداعبون الزّرافات، وعدّت لضَياعي الَّذي بات يقلقني كثيرًا! ولكن وجب عليّ أنْ أتوه لأصل، وأنْ أشقىٰ لأنمو.

ولأنَّ التّغيير، وتحقيق النتائج يحتاج إلىٰ زمنٍ طويلٍ، كان الوقت العملة النادرة الَّتي يفتقدها الكثير، حتّىٰ أنا، فأصبحتْ الرّغبة بإحداث التّغيير مرتبطةً بسرعة إنجازه، والحصول علىٰ النّتائج المثالية في أقلّ وقتٍ ممكنٍ، الأمر الَّذي قد يخيّب كثيرًا من الآمال ويقتل العزيمة لدىٰ كلّ متعطّشٍ لهدفٍ لا يلقىٰ من النّصر ما يروي عطشه، ولنكن واقعيين.. كلّنا متعطشون لأهدافنا، ولو ما كان الوقت معضلةً لرأيتني ارتحلت بسيّارة أحلامي عوضًا عن الانتظار علىٰ قارعة الطّريق، ولو يأس قلبي لاحْتضَرْتْ أهدافي، ولكن أهدافي هي بوصلتي، لذلك أعلمُ جيّدًا أنّ التّحديق بها طويلًا دون المسير نحوها لن يبلغني مرادي.

أمشي مُكرهًا في الشّمس، منتظرًا مضيّ الوقت حتّىٰ تغيب عنّي قليلًا، وأستلذّ بمسير اللّيل، لا أعلّق نفسي بالنّتائج دومًا، يكفيني نور القمر وحلاوة الشّاي ودخان السّجائر لأستمتع برحلتي، أجعل لنفسي لذّةً أستلذّ بها أثناء المسير، ولأنّ نفس الإنسان جائعةٌ تشتهي الإنجاز،

أحاول دومًا أن أجد ما يبعث في نفسي هذا الشّعور في قصير الأمد، ليمدّني بالعزيمة لما تبقى من المشوار..

لست بالقدر الكافي من الحكمة والنّجاح لأُقرَّ بهذا الأمر، ولكنّني أجزم أن كلّ إنسانٍ طموحٍ لا يملك الشّغف اتجاه النّتائج وحدها، وإنّما تعلّق بحب الطّريق نحوها، فكان هذا سبب عشقي للصحاري رغم جحودها، ولربما لم أحب الصّحاري بقدر ما كنت أحبّ نفسي فيها، لذلك كان الجاهليّون يقولون إنّ الرّجل أحيانًا لا يقع في حبّ المرأة، وإنما يحبّ حبّه للمرأة..

أعلم أنّني أسهبت لكِ كثيرًا في قصّة ما قبل النّوم اللّيلة، لا تعلمين أين وصلت في مسيري ولا حتّى أنا أعلم، ولكنّني ما زلت أسري، ولعلّكِ ما زلتِ تسألين ما علاقة رسالتي هذه بسفينة «ثيسيوس»؟ ما كنت أريد إيصاله أنّنا جميعًا كما السّفينة، لنحصل على أبهى نسخةٍ من ذاتنا نحتاج تغيير كلِّ خصلةٍ مُهتلكةٍ فينا، تغيّرنا هذا لا يعني تغيّر هويتنا؛ فقد بقيت السّفينة تُعرف باسمها وانتصاراتها رغم تبديل أخشابها بالكامل..

ثقي جيّدًا أنّني لا أحاول تغيير العالم بقصتي هذه، أنا أحاول قدر الإمكان ألّا يغيّرني هذا العالم أصلًا، لستُ مثل الأشخاص في المقاطع الَّتي تتابعينها؛ لا أُعطي الدّروس ولا يُهمني تغيير النّفوس، وبالذّات أنتِ..

لَستُ مُذهلًا

أدركتُ مؤخّرًا أنَّني لم أعدْ مذهلًا كما كنتُ أعتقد دومًا..

قبل بضعِ سنينَ، كنتُ قد أخبرتُ جدّي أنَّنا سنذهبُ في رحلةٍ لشرب الشّاي واسترجاعِ ذكرياته.. كلانا فقط.. على أحد أطلالِ قريتنا. ولكنّني لم أوفِ بذلك.. وعدتُ والدتي بأن أعودَ إلى المنزلِ في وقتٍ مبكّرٍ عند خروجي مع أصدقائي، ولكنّني عدتُ قُبيل الصّباح.. وعدتُ نفسي بألّا أتكاسلَ عن واجباتي الحياتيّة، ولكنّني نمتُ قبل أن أُنجزَ أيًّا منها..

"إنَّ الإنسان خائنٌ بالفطرةِ يا ولدي، خائنٌ لمن حوله وخائنٌ لنفسه، يكترثُ لما يُسعده ولا يأبهُ إن كان يُسعدُ الآخرين بقدر ما يُسعدُ نفسه، أنتَ لستَ مذهلًا يا ولدي، ولم تكن كذلك يومًا!" قالت لي عرّافتي قبل بزوغ شمس البارحة..

أَحْجَارٌ أَمْ أَسْفَارٌ

هل تساءلتَ يومًا لماذا يحبّ الرّجال اقتناء الأغراض العشوائيّة؟ لماذا يمتلك والدك تلك العصا القديمة في مخزنه بالرّغم من عدم استخدامه لها؟! هل تساءلتَ ما الَّذي يبدو مهمًا في الاحتفاظ بمجموعة الأحجار الَّتي تقطن في إحدىٰ زوايا المخزن العتيق؟! ما قيمة هذه الأشياء؟! وهل تراكمها يثقل كاهله في ترتيبها؟ لماذا تحتلُّ هذه الأغراض كلَّ هذه المساحة؟! ولماذا لا يتخلّص منها بالرّغم من إلحاح والدتكَ عليه بذلك؟!

قبل سنةٍ من الآن، في ليلةٍ صيفيّةٍ تمامًا كهذه اللّيلة، كان دور عائلتي في سقاية أشجار مزرعة جدّي، ولأنّنا ما زلنا نتّبع نظام الرَّيّ القديم الَّذي يعتمد علىٰ توزيع مياه النّبع المشترك بطريقة المحاصصة بين العشائر عبر شبكة قنوات الرَّيّ القديمة، بدأتُ رحلة السّقاية من خروج الماء من الينبوع، وبقيت أمشي مصاحبًا تدفُّق المياه في السَّواقي، متأكّدًا من جريانها دون معيقاتٍ، مزيلًا كلّ معيقٍ أجده، حتّىٰ رأيتُ

حجرًا جميل المنظر، حجرًا نهريًا، أو ما يُسمىٰ بالعاميّة «حجرَ الزّلط»، انتشلته من مجرىٰ المياه، ووضعته جانبًا، كان ملمسُه ناعمًا، لم تتعلّق به الطّحالب كباقي الأحجار، لم يهن عليّ أنْ أتركَه علىٰ قارعة السّواقي، فيتّسخَ بعوامل الطّبيعة القاسية، فأخذته معي لكي أضعه في غرفتي ليضفيَ جمالًا جديدًا، رفعتُ ثوبي ولففته حول خصري، ووضعت الحجر في طيّه وأكملت مسيري ملاحقًا تراكض المياه نحو مزرعة جدّي.

وجدتُ حجرًا مماثلًا علىٰ بُعد عشرة أمتار من الحجر الأوّل، فسألت نفسي لماذا حصل الحجر الأول علىٰ فرصة أن يكون منظرًا في غرفتي بينما هذا الحجر يفتقر إليها؟! فقرّرت أن آخذه هو الآخر معي بالرّغم من عدم حاجتي له.

لبثتُ أمشي مع طول السّاقية شديدة التّعرّج، تارةً مطأطئًا رأسي لكي لا أصطدم بأغصان الأشجار، وتارةً أخرىٰ أقفز لكي لا أغوص في الوحل علىٰ جانب السّاقية، أنظر هنا وهناك أبحثُ عن أحجارٍ لأحملها، أحجارٍ لأحميها، أحجارٍ أحسّ بالذّنب لخذلانها، وأحجارٍ أخرىٰ لأثبت بها أنّني قادرٌ علىٰ حمل المزيد، زاد الحمل وزاد معه إحساسي بالقوّة، حاول الثّوب مرارًا أن يُعلن استسلامه، ولكنّني كنت أصرّه جيدًا إلى

بطني كلما جاء ينفلت، فلا أستطيع ترك أيٍّ من هذه الأحجار، زاد الحمل أكثر وأكثر، وبدأت المياه تسبقني فلا أستطيع اللّحاق بها.

تركت كلّ ما يعيق حركة المياه، وكرّست انتباهي للأحجار، حملت أضعاف ما كنت أحمله في بداية السّاقية، ولكنّني بقيت مستمرًّا بجمع المزيد، وبينما كنت أركض وألهث، وقع نظري على حجرةٍ نادرةٍ تشبه حجر العقيق المصقول، صغيرةِ الحجم، لامعةٍ كالبدر في اللّيلة الظّلماء، تستشعر نعومتها دون لمسها، وكأنّها الحجرة المثاليّة لأيّ إنسان رآها. تركت المياه وبقيت أركض نحوها، وبينما كنت أقترب منها، كان وهجها يخفت شيئًا فشيئًا، زاد اسوداد اللّيل من حولي، لا أعلم ماذا جرى لمياه الرَّيِّ، وماذا جرى لحالي، واختفى أثر الحجرة تمامًا ولكنّني لم أتوقف عن البحث عنها، وفجأةً!.. دست على شيءٍ حادٍ أشبه بالخنجر، لم تستطع قدمي تحمّل الألم، وفاق ثقل حملي للدّرجة الَّتي اختلّ خلالها توازني، فسقطتُ على الأرض هامدًا، وتناثرت كلّ الأحجار حولي، كانت هي تلك الحجرة الّتي سعيت نحوها.. بقيت على حالي برهةً من الوقت، لم آبه للماء ولا للحجارة، وبدأت أفكّر بما حلّ بجسدي..

كثيرًا ما نُحمِّل أنفسنا فوق طاقتها، نحمِل همومًا ومسؤولياتٍ لم

يُملِ علينا أحدٌ حملها، نعلّق أنفسنا بأحلامٍ مستحيلة التّحقيق، نُعجَبُ بشيءٍ فنُلقي على كاهلنا عبءَ محبته، وربما نُحمّل أنفسنا الإحساس بالذّنب اتجاه تلك الأشياء، أو نُكبّد أنفسنا عناء المشقّة والتّعب لنُثبت للآخرين أنّنا نحبهم ونحارب لأجلهم، ولربما كان تَحمّلُ المسؤولية هو الفارق بين الرّجال وأشباهها، ولعلّ تكدّسَ الأغراض في مخزن والدي يعكس ما بداخله من أسفارٍ بات يحملها منذ طفولته، لا أعلم إن كان هذا الاكتناز جيدًا أم لا، ولكنّني أعلم جيّدًا أنّني سأترك الأحجار وحدها الآن، وسأقوم باللّحاق بالمياه قبل وصولها لقيعان الأشجار..

المُعضِلة

الرّابعةُ والنّصفُ فجرًا، لا تدري إن كنت ما زلت مستيقظًا لأجل صلاة الفجر، أم بسبب نسبة الكافيين المرتفعة في جسمك، أم بسبب انتظارك لرسالة أحدهم، أم بسبب.. بسبب انعدام الأسباب!..

أنتَ لا تريد السّهر تحت وطأة هذا اللّيل، تريد أن تطوّع نومك للدّخول في تجربة حياة الأشخاص أصحاب البرنامج اليوميّ المنظّم الَّتي تُشاهدها علىٰ هاتفك، ولكنَّ الرّغبة بالإحساس بالشّفقة علىٰ نفسك تدفعك للسّهر، أجل! هذا هو السّبب.. ولكنْ تنام عندما تصل الشّفقة إلىٰ ذروتها، فتخافُ نَفسُكَ علىٰ نَفسِكَ من وطأة نَفسِكَ علىٰ نَفسِكَ، فيكون النّوم هو الخيار الأمثل لإنهاء هذا الصّراع، إذًا الشّفقة ليست السّبب!..

تعودُ بكَ ذكرياتك إلىٰ سفاسف الأمور وأتفهها، تبدأُ بخلق الأعذار لنفسك عن أمورٍ تافهةٍ كنتَ قد فعلتها في يومك، ولكنَّ هذا ليس سبب سهرك، لأنّكَ في الوقت الَّذي تلعن ذاتَك وتختلق لها الأعذار من أجل

ذاتِك، تخلد إلى النّوم بسبب تعنيف ذاتِكَ لذاتِكَ..

"اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ"، ها هو المؤذّن يصدحُ بصوته الَّذي كنتَ قد اعتدت عليه منذ طفولتك، يُرقّقُ لفظَ حرف اللّام فيُضايقُكَ الأمر لأنَّهُ يجب تفخيم اللّام لا ترقيقها، ولكنَّك تُدرك أنَّك في كلِّ مرَّةٍ تسمع هذا المؤذّن فكّرت في نفس المشكلة ولم تفعل شيئًا اتجاهها، تقوم من فراشك الَّذي سئم منك، تتوضأُ وتصلّي الفجر آملًا أن يكون سببُ سهرك هو صلاة الفجر، ولكنْ قبل نومك تُدركُ أنَّكَ في كثيرٍ من الأحيان بقيت مستيقظًا لقُبيل الفجر، ولكنَّك نمت قبل أن يُرفع الأذان، فتعترف حينها أنَّ السّبب الحقيقيَّ لسهرك لم يكن لدوافعَ دينيّةٍ في الحقيقة!..

تعودُ لفراشك، فتدرك أيضًا أنَّ الكافيين ليس سبب سهرك، فلطالما شربت قهوتك ثمَّ خلدت للنّوم بعدها مباشرةً.. تلعن حالة نومك ألف مرّةٍ، وتضيف فشلك في تحديد سبب سهرك إلى قائمة الخيبات في ذاكرتك، تغشى غمامة أملٍ سماءَك الخائبة، فتنوي أن تنام في وقتٍ أبكر في المرَّة القادمة، وتلتحفُ عيناك بجفونها، وتبقى لعنة السّهر تنبّش عن خيباتٍ أخرى لتفكّر فيها في ليلتك التّالية..

«إنتروبيا الأفكارِ»

ألحَّ عليَّ والدي بتنظيف المخزن العتيق الكائن في الطّابق الأرضيّ بجانب بئر تجميع مياه الأمطار، والّذي بات هو الآخر يشكو جفافًا حادًا في الموسم المطريّ الأخير..

كانت غالبية الأغراض في المخزن ما تبقّىٰ من مواد بناءٍ أنهكتْ تكاليفها كاهل والدي، أو عدّة طبخٍ كنا قد استخدمناها في «صدقة» عزاء أحدهم، أو تنكة زيت زيتونٍ كنّا قد استغرقنا موسم قطاف الزّيتون كاملًا لتحصيلها، أو صوبة «فوجيكا» كان قد فسد فتيلها بعد دهكٍ دام اثني عشر موسمًا شتويًا، "هالمصانع الهاملة ما عقّبتْ إلنا حاجة، لسّا أول مبارح مغير الفتيل"، قال والدي معللًا سبب تلف الفتيل، علىٰ أيّةِ حالٍ، وبطبيعتي السّخيفة، قلتُ له محاولًا إقناعه بأنَّ التّرتيب لا داعي له؛لأنَّ ترتيب هذه الأغراض يزيد في فوضىٰ الكون، فردَّ عليَّ قائلًا: "الآن بتنزل بترتبه لأعيد ترتيب وجهك"، فهممت بالتّرتيب خوفًا علىٰ ما تبقّىٰ من ملامح وجهي!

ومع أنَّ محاولتي في إقناعه باءت بالفشل، فإنَّ ما ذكرته بخصوص ازدياد فوضىٰ الكون صحيحٌ، وقانونٌ فيزيائيٌّ بَحْتٌ يسمىٰ قانون «الإنتروبيا»، وهو ثاني قوانين «الدّيناميكا الحرارية». دعيني أشرحُ لكِ ما أعني بذلك: فلنقلْ أنَّ هنالك مكعّبًا ثلجيًّا يملك وحدتين من الطّاقة بجانب كوبٍ من الشّاي يملك ثماني وحداتٍ من الطّاقة، لو وضعنا المكعّب في الكوب، فإنَّهُ مما لا شكَّ فيه أنَّ مكعّب الثّلج سيذوب وسيتكوَّن نظامٌ شاملٌ يمتلك عشر وحداتٍ من الطّاقة، لم يختلف مقدار الطّاقة، وذلك وفقًا لقانون «الدّيناميكا الحرارية» الأول، ولكن اختلف توزيعها؛ فتبعثرت وحدات الطّاقة في توزيعٍ مختلفٍ عن توزيعها قبل الذّوبان، وهذا يعني أنَّ «الإنتروبيا» أو العشوائية قد زادت، وهذا ما يحصل دائمًا في كلِّ تفاعلٍ فيزيائيٍّ أو كيميائيٍّ في كوننا؛ «الإنتروبيا» لا تنقص ولكنَّها دائمًا في ازدياد، فهذه التّفاعلاتُ تسيرُ دائمًا في مسارٍ واحدٍ، وهو المسار الّذي يقود لعشوائيّةٍ أكثر، وهذا بالطّبع يفسّر ذوبان مكعّب الثّلج في الشّاي عوضًا عن تجمّد الشّاي مع مكعّب الثّلج، كلُّ هذا يُفسرُ أنَّ كلَّ تفاعلٍ فيزيائيٍّ أو حيويٍّ أو كيميائيٍّ يؤدي لزيادة «الإنتروبيا» في كوننا، ممّا يعني زيادة العشوائيّة في توزيع الطّاقة، أي أنَّ

ترتيب المخزن يزيد في مستويات فوضى الكون..

الغرضُ من شرحي لقوانين «الدّيناميكا الحرارية» لم يكن سوى لهدفٍ واحدٍ: وهو أنَّهُ مهما استجمعت كلَّ طاقاتي من أجل ترتيب أفكاري انتهى بي المطاف بزيادة بعثرتها وشتاتها، أسعى دائمًا للوصول لحالة الاتّزان، ولكن كلّ ما أفعله لتحقيق غايتي يزيدني اضطرابًا، ومهما حاولتُ جاهدًا أن أنسى احمرار وجهكِ الخجول، رمتني العشوائيّة في محيط العيون مرّةً أخرى، فأحاول النّجاة ولكن من دون جدوى..

يا للبعثرة!..

عَظيمٌ تَخلّي المَرءِ

هناك في الأفق، على طريقٍ يوصل بين الجنوب والشّمال، بين الواقع والحلم، بين الفرصة ونقيضتها، بين الرّغبة والحاجة، بين الطّموح والمعاناة، يُقامر شابٌّ على ما تبقّى من عمره، يقف حاملًا حقيبة ظهرٍ سوداء يحشو فيها آماله وما تبقّى من حطام قلبه، يرمي ثقله على ساقه اليمنى تارةً واليسرى تارةً أخرى، يناوب بينهما عباْه، في فمه سيجارةٌ مشتعلةٌ وفي روحه بقايا وهج الصّحراء، كان يبعد عنّي مسافة ما يعادل أربع طائراتٍ عملاقة، ولكنّهُ قريبٌ منّي في غايةٍ مشتركةٍ، كقرب حُوار الإبل لأمِّه قبل فطامه.

سرحتُ في الأفق أفكّر فيما يسمو إليه هذا الشّاب، ماذا ترك خلفهُ ليقف هذه الوَقفة؟ هل يستحق هدفه عناء مشقّته هذه؟ هل اختار ما هو عليه؟ أم أنّه مجبرٌ على الاستيقاظ قبل الدّيوك العاملة ليجد وسيلةً يُقلُّ بها نفسه؟ امتدّتْ تساؤلاتي مع امتداد السّراب، توقفتُ عندها فجأةً على القارعة ورجعتُ للّخلف، كنتُ أشاهدهُ على مرآة السّيارة الجانبيّة

وهو يركض نحو سيّارتي مُنتصرًا علىٰ رياح الطّريق التي أجحفت به منذ الصّباح.

"صباح الرّزق يا طيّب"، قال لي وهو يضع حزام الأمان. تناولنا أطراف الحديث بعدها.. كان طالبًا للّعلم يدرس في إحدىٰ الجامعات البعيدة عن مسقط رأسه، يشقُّ طريقه نحو وطنٍ جديدٍ، أدركت حينها أنّنا فعليًّا لا نختار أوطاننا، وأنَّ مكان ولادتنا ليس مكانَنا، وإنما موضع من سبقنا، وأنّنا ننحت هويّاتنا بأنفسنا، ونستكشف أماكن أخرىٰ لتكون مسقط رأس أحفادنا، تمامًا كما يفعلُ الرّحّالةُ عند رحيلهم عن سفوح الجبال في نهاية الصّيف ليبنوا خيامهم في الوديان.

همّ هذا الشّاب بالحديث عن نفسه، أعجبني حديثه وبقيتُ صامتًا لأنّني أنا الآخر أفضل الاستماع علىٰ التّكلُّم، كان ينحت الصّخر بأظفاره كما لو أنّه يتحدّىٰ المستحيل، يعمل صباحًا ويدرس مساءً، يُعيل من حوله، ولا يُلاقي مَن يُعِيلُ قلبه، يزرع الأرض من فتات قلبه، يسقيها من عرق جبينه، ثم يتبرّع بالمحصول لمن يراه محتاجًا، كان مزيجًا من الأفكار والهويّات والمشاعر، عجبتُ كيف رسم الوقت هذا المزيج علىٰ قلبه وفكره، فسألتُه مقاطعًا: "لو وددنا وضع حياتك في رسمةٍ واحدةٍ

تجمع كلَّ ما ذكرته للتّوّ، ماذا ستطلق على هذا الفن؟"، صفن في الأفق لوهلةٍ، تناول سيجارةً وأشعلها، سحب منها وتنهّد والدّخان ينبثق من فمه: "فَنُّ التّخلّي"، صمتٌّ بعدها وأكمل هو، لقد حرق ما تبقّى من سيجارته.

لعلَّ أعظم ما يتعلّمه المرء في حياته أن يتخلّى، يتخلّى عن أماكن، عن أشخاصٍ، عن علاقاتٍ، عن طموحاتٍ، عن آمالٍ وخيباتٍ؛ فاستيقاظك صباحًا يعني تخلّيك عن وسادتك الدّافئة، وسعيك نحو برودة الحياة، نومك مبكّرًا عن متاع الدّنيا يعني تضحيتك لإراحة جسدك المتهالك من مشقتها. لا يمكنك الفرار، عليك أن تضحّي، جميع الخيارات مُرّةٌ وأحلاها مُرٌّ، كالّذي يختار مرضَهُ بنفسهِ، هنالك دائمًا خسارةٌ، فانتقِ ما ستخسر قبل أن تُفكّرَ بما ستظفر.

لن تكون جميع انتصاراتك مبهجةً؛ تركُكَ لوطنك لأجل فرصةٍ في الخارج، تخليك عن حلم طفولتك وسعيك نحو حلمٍ آخر، تجاوزك لمن تحب، تخطيك لصداقةٍ كانت تعني العالم بأسره، ابتعادك عن والدتك لتحقيق أهدافك، نتائجُ هذه الانتصاراتِ مذهلةٌ ولكنَّها تحمل في طيّاتها الخذلان والهزيمة، فمحطّة النّهاية نجاحٌ، والطّريق نحوها مملوءٌ

بالخسارات.

قبل وصولنا لوجهتنا -الّتي كانت من حسن الحظِّ مشتركةً- سألت هذا الشابَّ سؤالًا أخيرًا: "ما هو أعظم ما يمكن أن يتخلّىٰ عنه الإنسان؟" نظر وقال لي مُتنازلًا عن رغبته في الحديث: "يصبح الإنسان حرًّا عندما يتخلّىٰ عن رغبته بأن يكون محبوبًا".. توقفتُ قليلًا علىٰ جانب الطّريق المزدحم وجلست أفكّر، لم أنطق بكلمة، ساد الصّمتُ في السّيارة، حتّىٰ «زمّر» لي أحدهم من الخلف، نزل عندها الشّابُّ مسرعًا، "اللهُ يقوي عزيمتك ويفتحها عليك" قال لي وهو يتخلّىٰ عن قطعةٍ أخرىٰ من قلبه علىٰ مقعده..

حَديثُ الظِّلالِ

عُدتُ إلى المنزل متأخّرًا في إحدى اللّيالي، أشعلتُ «نوّاستي» الصّفراء، فوجدتُ ظِلّي ينتظرني في زاوية الغرفة، لم يُخِفني طوله، فقد اعتدتُ وجوده، ولكنّه كان مختلفًا في تلك اللّيلة؛ أبدى استياءه متزمّتًا من انقطاعي الطّويل عن محادثته، مُعلِّلًا سبب جفائي بتقدُّمي في العمر وتغيُّرِ شخصيّتي، يشتكي هجران أصدقائه له من قبل، الّذين احدودبتْ ظهورهم من حمل دنياهم.

وبالرّغم من أنّ انقطاعي عنه لم يتجاوز بضعة أسابيع، إلّا أنّه أبدى قلقه من غيابي، يسأل عن أحوالي في النّهار عند مغيبي عنه بطريقة لم أعتدْ عليها من قبل، يتنهّد قليلًا ويسأل كثيرًا، لم يترك تفصيلةً واحدةً لم يسأل عنها، بدأتُ أجيبُ بذات البرود الّذي أقرَّ لي به من حولي مؤخّرًا، ولم تَبدُ عليه علامات الرّضا بما كان يسمعه منّي.

"تغيَّرتَ عليّ!" قال لي مستنكرًا، فتعجّبتُ من ردّه، كيف يمكن للإنسان أن يكبر في العمر ويتغيّر في بضعة أسابيع فقط؟! همس لي ببرودٍ

كالّذي كنتُ أحدّثه به: "لا يُقاس العمر بالسّنوات والأيام، وإنّما بكثافة المواقف ودور الشّخوص في الأحداث الّتي تدور في فلك هذه المواقف، انظر لنفسك قبل سبعة أسابيعَ واحكم علىٰ عمرك بنفسك"، رحل بعدها عندما أطفأتُ الأضواء واستلقيتُ علىٰ سريري.

أعترف أنّ إحساسي اتجاه كلامه لم يكن مريحًا البتّة، أو ربما كان الإحساس اتجاه نفسي لأكون أكثر دقّةً. جالستُ ذاتي محاولًا إقناعها أنّ كلام الظّلال ليس إلّا ككلام العجائز، لا يتوافق مع تطوّر زمننا، ولكنّني كنتُ أعلم في قرارة نفسي أنّ حديث الظّلال هذا أصدق من حديث البشر وأوهام الزّمن، أدركتُ بعد حينٍ من الوقت أنّ الإنسان بطبيعته يحاول جاهدًا إقناع نفسه بالأفكار الّتي تُرضيه عن نفسه فقط، ويسعىٰ للحصول ولو علىٰ أقلّ الأسباب مصداقيّةً لكي يرىٰ أنّه الصّواب، ناكرًا ما تنصحه به الظّلال، يهرب من الحقيقة المُرّة، تمامًا كما يتهرّب الطّفل من العقاب بالكذب، ولكن بالمقابل يوجد في كلٍّ منّا عجوزٌ حكيمٌ في عقله، ينبّه النَّفس الشّابّة إلىٰ اصطناع التأويلات وتصديقها.

كلّما تنحّيتُ عن طريق الصّواب ذكّرني ظلّي بمن أكون، ومن أنا؛

وأنّ رغباتي ليست بالضّرورة احتياجاتٍ، وأنّ أيّ تغييرٍ قد يحتمل النّقيضين: الإيجابَ والسّلبَ، يعلّمني مهارة الاستماع عندما كنتُ أضجر من تلقي الأوامر، ويذكّرني بذلك العجوز القاطن في رأسي كلّما غرّني شبابي..

عجيبٌ حقًّا أنّ ظلّي يتركني نهارًا لأُجابه الحياة بمفردي، ولا يحدّثني سوىٰ في اللّيل، حول ذلك الضّوء الأصفر الخافت، في عزلتنا دون الجميع!..

لَـذّة

أصبحتُ أدركُ أنَّ لذّةَ الأشياءِ تكمنُ في تجربتها في غيرِ مكانها، وأنَّ ما تظنُّه جميلًا في مكانٍ ما قد يكونُ أجملَ في مكانٍ آخرَ، تمامًا كما هو الفرق بين غبشِ النّجوم في سماءِ المدينة، وبريقها في الصّحاري..

تكتسبُ الأشياء الثّمينة قيمةً أكبر في عيون ناظريها عند خروجها عن محيطها المعتاد، ليس نقصًا في محيطها، ولكنَّ خروجَها عن المعتاد يجعلُها مُقدَّسةً عند مالكيها.. كسماعِكَ أغانيكَ الشّرقية في بلاد الغرب، أو تناولكَ طعام والدتكَ في غُربتكَ، أو جلوسكَ بجانب شخصكَ المُفضَّل في مكانٍ لم تعتدْ على الجلوس معه فيه.

ما يجعلُ من الرَّحال مميّزًا هو قدرتُهُ على أن يستلذَّ بهذه التّفاصيلِ ويفهمها بصرفِ النّظرِ عن محيطه، ولأنَّ هذه ميّزةٌ، فإنَّ قدرةَ البشر على فهمها لا تتشابهُ البتّة، فأجزمُ أنَّه لا يوجدُ شخصٌ قادرٌ على فهم ما أشعرُ به عندَ رؤيةِ محيَّاك خارج هذا المحيط، ولا أعني بذلك تغيُّرَ جمالكَ، ولكنَّ فرصتي بالتَّمعن في الصّور في وحدتي تختلفُ تمامًا عن رؤيتي لكِ

خلسةً من بين الجميع، فبريقُ النّجومِ ثابتٌ في سحره وعطائه، ولكنْ لصفاءِ السّماء وغياب أضواء المدينةِ، نستلذُّ برؤيتِه في الصّحاري على خلاف المُدن.

لولا التّرحال لما حصل الرَّحالُ على هذه الفرصة، فسبيلُ الإنسان لاكتشاف ذاته وتقييم ما حوله لا يحدثُ إلّا عند خروجه عن المعتاد، وهذا لا يعني وحدَه انتقالَه عن مكانِه الجغرافيِّ وحسب، فعزلتُكَ ترحال، عملُكَ ترحال، علاقاتُكَ بالنّاس ترحال، تجاربُكَ الجديدةُ ترحال، كلُّ هذهِ الرِّحلاتِ فرصةٌ لاستكشاف الذّات قبل استكشاف الوجهة الجديدة، ونعمةٌ نعيشُها لنقدّرَ قيمة ما نملكُ قبل خسارته..

أمّا أنا، فسأذهبُ الآنَ للصّحراء بعيدًا عن ضوضاء المدينة، لعلّي هذه المرّة أدركُ مُذنَّبًا وسط النّجوم!..

ذِكرياتُ المَطرِ

سماءُ قريتي شحيحةُ المياه، بالكاد تمطر هنا، كانت إذا سقطت قطرةُ مطرٍ واحدةٍ علىٰ زجاج نافذة غرفتنا ونحن نتحرّىٰ قدوم الخير، فزعت أختي الكبيرة نحو حبل الغسيل قبل أن يبلّله المطر، فنقوم نحن باللّحاق بها كما تجري فراخ البطِّ خلف أمّها، لم يأبه أحدٌ منّا بنشر الغسيل وإنزاله في غيرِ وقت المطر، وعلىٰ وجه الخصوص أنا؛ فقد كنت أكثر من يتلقّىٰ التّوبيخ في كلِّ مرّةٍ أعود بها للمنزل وأرمي جواربي، ولكن ما أن أسمع صوت الرّعد أو أن تلامس قطرةٌ وجنتيّ حتّىٰ أصرخ بلا وعي: "الغسيل!" وأركض مرّةً أخرىٰ خلف أختي، فتقوم هي بوضع الملابس في السّلّة، وأقوم أنا بمهام الرّجال وأنقل السّلة إلىٰ الدّاخل، لا أعتقد أنّني كنت أدرك السّبب وراء تفكيري بالغسيل عند المطر، ولِمَ اقترن قدوم الخير بزيادة الحذر؟!.. أذكر بينما كنّا نلعب كرة القدم في الحارة في أحد أيام نوڤيمبر، توقّف جميع الأطفال عن اللّعب عندما أصبحت الغيوم في السّماء تبرق علىٰ غير عادةٍ، بدأ الجميع بالصّراخ بينما كنت أفكّر أنا في «الغسيل»..

عندما كان يأتي المطر ضيفًا، تستعدُّ نسوة الحارة ورجالاتها لاستقباله، كبار العمر كجدّي يقلِّبون تراب الأرض لتتنفّس هي الأخرىٰ بعد صيفٍ مجحفٍ، يقتلعون الحشائش من جذورها؛ لكي تستفيد الأشجار وحدها من مياه الأمطار، كانوا يعلمون جيّدًا أنّ الحشائش، وبالرّغم من أنّها تضفي جمالًا أخضرَ في الحقول، إلا أنّها تستنزف الموارد كالأمطار والأسمدة وغيرها، ففضّلوا انتزاع هذا الجمال لأجل غايتهم، وهي إرواء الزّيتون والعنب وغيرها من الأشجار..

في المنازل كان الرّجال يتأكدون من نظافة مزاريب المياه الَّتي تمنع تجمع المياه علىٰ السّطوح، وتحت السّطوح كانت النّساء تطبخ «شوربة العدس» بمجرد رؤيتهنّ إقبال الغيوم في الأفق نحو القرية، الأطفال كانوا يشاهدون التّلفاز ويشربون شراب السّحلب السّاخن راجين الله ألّا تشوِّش مياه الأمطار تردُّد قنوات «الكرتون»، تنتشر روائح البوشار والشّاي بنكهة «الميرمية» في منزلنا بعد صلاة العشاء، ونحن نلتفّ حول «صوبة البواري»..

لم ينزل المطر بعد، ربما كانت الغيوم أملًا زائفًا يبعث في النّفس التّباشير، ولكنّني ما سئمت الانتظار، أتابع السّماء خلف نافذة غرفة

والديّ أتحري الخير، مُطمَئنًّا أنّ الغسيل المنشور علىٰ الحبال بات كلُّه في الخزائن.

في يومٍ من أيام الشّتاء أصاب قريتي وابلٌ من الأمطار لم نعتدْ عليه من قبل؛ ملأت مياه المطر سدّ القرية حتّىٰ فاضت منه، أكلت مياه الفيضان كلَّ ما وجدت في طريقها: نخلتين، كرةَ قدمٍ سوداء اللّون، تنكة زيت زيتونٍ، وتسعةً من جثث الخراف الهامدة رأيتها في الوادي عقب انتهاء السّيل، دُمِّرَ مطعم جارنا بعد أن اقتحمته المياه برفقة الحصىٰ، جارتنا الأخرىٰ نسيت أن تجمع الغسيل من علىٰ الحبال قبل المطر، رأيتها تبكي علىٰ عتبة باب بيتهم، لم آبه للمنظر، مشيت في الوحل بين الخراف الميتة شاقًّا طريقي نحو كرة القدم، شعرت بالفرح قليلًا لحصولي عليها، وبالحزن الكثير علىٰ صاحب هذه الكرة.. كنت أعيش كلّ هذه الأحداث وأختي بجانب الحديقة مبتهجةٌ برائحة التّراب بعد هطول المطر..

مرّ بضع الوقت، وكبرت في العمر فجأةً، ارتحلت إلىٰ مكانٍ غير هذا المكان ولم أعد أنتظر هطول المطر كما كنت أنتظره سابقًا، أصبحت أدرك أنَّ خير المطر يغدو شرًّا إذا لم نحسن استقباله والتّعامل معه، أدركت أنّ

جدّي، وبالرّغم من قوّة إيمانه واستسقائه للمطر، إلّا أنّه أعدّ عدّته وجهّز أرضه لاستقبال هذا الغيث، الشّاهد هنا أنّ الإنسان يرى الخير ببصيرة قلبه، ويثق تمامًا في نتاج هذا الخير، ولكن وإن كان هذا الخير مطلقًا، يجب أن يأخذ الحيطة والحذر، لا يعلم ماذا يلقى من هذا الخير، فالمطر الَّذي غسّل الزّيتون وسقاه، هو ذلك المطر الَّذي انتزع النّخلتين من جذورهما.

كبرتُ يا أختي، ولم يعدْ المطر يبهجني كما في السّابق، لا أتحرّاه خلف النّافذة ولا أُعدّ «شوربة العدس» لاستضافته، توقّفت عن غناء «شتّي يا دنيا تيزيد موسمنا ويحلى»، وأصبحت أغنّي «أنشودة المطر».. أتعلمين حقًا أيَّ حزنٍ يبعث المطر الآن؟! "وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع؟" لا عليكِ من هذا كلِّه، ما زلت أحفظ مهامكِ جيدًّا؛ أتّقي نشر الغسيل تحت الغيوم، وأخرج لأشمّ رائحة التّراب بعد هطول المطر، كما كنّا نفعل سابقًا..

رسائلُ دُفِنتْ في الهاويةِ

بينما أحاول جاهدًا في طرح بدايةٍ لافتةٍ لهذا النّص؛ لكي ألفتَ انتباهكِ كَكُلِّ مرّةٍ أفعلها عند كتابة أحد النّصوص المنتقاةِ الكلمات والصُّور، أقفُ عاجزًا هذه المَرَّة عن الخروج بشيءٍ جذّابٍ من وسط الحُطامِ الّذي أنتشلُ منه أفكارَ نُصوصي..

وعلىٰ عكس كلِّ مرّةٍ كنتُ أُبصرُ هذا الرُّكام، فإنَّني أجد نفسي ضريرًا لا تسعُني رؤية النّجوم، أركض علىٰ قمة جبلٍ في ليلةٍ ظلماء افتقدتْ نورَ البدر وأُنسَ الأحبّة، لا أعلم متىٰ عليَّ التّوقف، أسعىٰ نحو مجهولٍ، الوقوف أصبحَ متعبًا، والرّكض باتَ مملًّا، مُجبرًا أستنزفُ ما تبقّىٰ من خلايا جسمي..

لا يُرهقني الرّكضُ بقدرِ ما يُرهقني البحث عن جوابٍ لهذه الأسئلة: ماذا لو كنتُ أركضُ نحوَ حافةِ الجبل؟ كيف أتجنّب السّقوطَ في الهاويةِ؟ لماذا ما زلتُ أركض؟ وهل يستحقُّ حتفي كلَّ هذا العناء؟

في حالِ عدم وصول هذه الرّسالة، إعلمي أنَّني قد وجدتُ جوابًا لهذه الأسئلة في عنوان هذه الرّسالة..

أيُّ رحّالٍ أنتَ؟

قد يقودكَ عقلكَ إلى برّ الأمان دون أن تبتلّ بقطرة ماءٍ واحدةٍ، فقط ليكون هذا البرّ خاليًا وجافًا.. وقد يجابه قلبُك بك أعاصير مهلكةً ويرسو بك على جزيرةٍ لم تكن في حسبانك، ولكن هذه الجزيرة مليئةٌ بك وبمن أحببت..

عُد واسأل نفسك: أيُّ رحّال أنا؟..

الفهرس